صافي ناز كاظم

رساليات في البيت النبوي والإسلام



رسائليات في البيت النبوي وإسلام

تأمل



الطبعة الأولى لمكتبة الشروق الدولية

١٤٣٠هـ - أكتوبر ٢٠٠٩م



٧أ شارع فريد سميكة - مصر الجديدة

تليفون وفاكس: ٢٢٤١٥٨١٦-٢٢٤٠٤٨٦٨-٢٢٤٠٤٨٦٨

٢٦٤٣٢٤٨٨ -٠١٠١٦٣٣٧١٨

Email:shoroukintl@hotmail.com>

shoroukintl@yahoo.com>

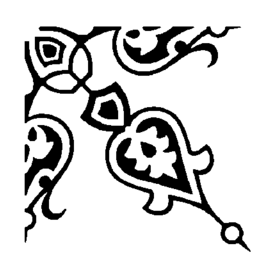
الفهـرس

الموضـوع	الصفحة
❊ إهداء	٧
❊ تأمل ووتريات	٩
١ - سكن الرسول: خديجة بنت خويلد	١١
٢ - أم أبيها: فاطمة بنت محمد	٢٧
٣- أم الشهداء: زينب بنت علي	٤١
٤ - المفترى عليها: سكينة بنت الحسين	٥٧
❊ إسلام: «ثلاثية وترية»	٧٣
❊ الوترية الأولى: وله أسلم من في السماوات والأرض	٧٥
❊ الوترية الثانية: هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله	٨١
❊ الوترية الثالثة: أما الصوم فإنه لي	٨٧



الإهداء

إلى الشهيد: سيد قطب



تأمل ووتريات

❖ لا بد لي أن أعترف بأنني سعيدة، لأن الله سبحانه وتعالى قد وفقني إلى كتابة هذا التأمل في شخصيات الرساليات سيداتي الخالدات في البيت النبوي: خديجة بنت خويلد وابنتها فاطمة بنت محمد وابنتها زينب بنت علي وابنة أخيها سكينة بنت الحسين - صلى الله وسلم عليهن جميعًا.

ثم يمتد التأمل ليأخذ شكل «الوتريات» التي تنسج حول رساليات مسلمات سابقات هن: هاجر أم إسماعيل وآسية حاضنة موسى ومريم أم عيسى عليهن وعليهم صلوات ربي وسلامه.

❖ وإنني إذ كنت قد أعلنت مرارًا عدم محبتي للكتابة ومسعاي للهرب منها كلما أمكنني ذلك، فلعل كتابتي لهذه التأملات التي نشرت بمجلة «المصور» طوال شهر رمضان المبارك عامي (١٤٠٣هـ، ١٤٠٤ هـ)، كانت استثناء في مشاعري تجاه الكتابة؛ إذ غمرتني البهجة وشملتني الطمأنينة ولفني الحب كل لحظات إنجازي لهذا العمل. ولا أعرف طوال عهدي بالكتابة وقتًا كنت فيه في توافق وسلام، وتجانس مع نفسي ومع الكتابة، كما كنت وقت بدأت وانتهيت من تدوين هذه التأملات. حتى إنني لاحظت- طوال عملي- عدم ابتلاعي حبة أسبرين واحدة، أو حبة من دواء مانع الاكتئاب الذي أوصاني به الطبيب كلما ضاق صدري أو اختنقت روحي من الضغوط الناشئة من استفزازات دولية أو إحباطات محلية.

- نعم،لا مداهمة من صداع أو اكتئاب، بل عين قريرة وغبطة تسكن روحي ليلًا ونهارًا، رغم أن العالم كان هو العالم!

- كان هدفي التأمل من خلال الأبحاث والروايات التي حققت سيرة هؤلاء الرساليات النبويات، مستدعية جوانب القدوة المشعة، التي تستنهض في المرأة المسلمة المعاصرة فاعليتها بصفتها كادرًا إسلاميًّا لها موقعها الأساسي في المجتمع الإسلامي، لتنبعث حرة عزيزة من أرضيتها العقائدية وتراثها الثقافي والفكري، بحيث لا تختلط عليها السبل، فترنو تارة إلى أنديرا غاندي وتارة إلى سيمون دي بوفوار، وتارة إلى مارجريت تاتشر ممن لا يصلحن قدوة للمسلمات، وقد أغنانا الله بقيادات في تاريخنا:

رساليّات، تمثلن العقيدة والهدي فمثلنها في نماذج حيّة صقلتها الحكمة القرآنية والسنة النبوية وأفصحت عن معدنها امتحانات المواقف والأحداث.

وبذلك جلست إلى كل شخصية منفردة أسألها في دقة وتركيز:

- «ماذا لديك سيدتي لتعطيني اليوم كي أنجو وأنهض وأنبعث جديرة بك، ولائقة بالانتساب إليك والامتداد معك روحًا إسلامية منتصرة ومتقدمة عبر العصور؟»

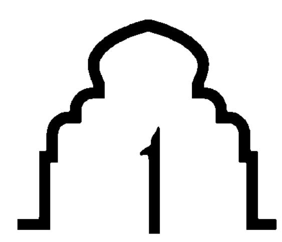
وجاءت الإجابة كما سوف ترون.

إن الله سبحانه وتعالى قد جعلني راضية بما وفقني إليه،

فالحمد له من قبل ومن بعد.

رمضان (١٤٠٧)
مايو (١٩٨٧)

* * *



سكن الرسول
خديجة بنت خويلد

«أبشر يا ابن عم واثبت!

فو الذي نفس خديجة بيده؛ إنك لنبي هذه الأمة!

والله،

لا يخزيك الله أبدًا..

إنك لتصل الرحم،

وتصدق الحديث

وتحمل الكَلّ

وتقري الضيف،

وتعين على نوائب الدهر!».

هكذا انطلقت كلمات خديجة قوية فورية جيّاشة، في رمضان عام (١٣) قبل الهجرة لتظل عبر (١٤١٦) من الأعوام تتوالى نحو الآن شاهد مبادرة قاطعة بالتسليم والإسلام، تعقبها بديهة الانحياز الكامل إلى الحق الذي رأته ولمسته في سمات وقول الزوج الذي عاد لتوه من «غار حراء»؛ ليروي ما شاهده - وحده - من لقاء الروح الأمين، وما احتواه هذا اللقاء من علم وتكليف.

مبادرة فورية بالعطاء.

انحياز حاسم ويقين بالتكليف الإلهي للنبي المختار.

وعي لا رجعة فيه أن التصديق بهذه الدعوة معه العهد بالفداء بلا حدود: بيعة خالصة لله ولرسوله أمام وعد حق من الله سبحانه وتعالى أنه: اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.

* خديجة *

«أبشر».

«اثبت».

«والله، لا يخزيك الله أبدًا»:

ثلاث كلمات مختلفات متصلات هي مدلولات لثلاث ثمار ناضجات:

«حب»،

«وعي»،

«شجاعة»؛

ثلاث ثمرات تخرج بدورها من مكونات ثلاثة تمثل الركائز الأساسية في شخصية تلك السيدة الفذّة، حين تجتمع فيها: «الرقة» مع «العقل» مع «الصلابة»، لتشكل وجه السيدة خديجة بنت خويلد، سكن الرسول، في حضور كامل يصنع مثالًا راسخًا عبر الزمان يحدده:

كيف تكون السيدة الرساليّة، وكيف يكون الموقف والالتزام لديها.

* خديجة *

يضج التاريخ بكتابات وأقوال المؤمنين وغير المؤمنين، في محاولات لم تنقطع؛ لتفسير شخصية السيدة خديجة بنت خويلد: المرأة الثرية، نجمة مجتمعها القرشي، التي تزوجت مرتين، وترملت في المرتين بعد أن أنجبت ابنًا وبنتًا في المرة الأولى، وابنًا آخر في المرة الثانية، سيدة الأعمال التي يتسابق أمهر شباب قريش؛ لينالوا توكيلها لهم للخروج بتجارتها في قافلة التجارة القرشية نحو الشام: فيقع اختيارها على الشاب الفقير ابن صديقتها في الصبا آمنة بنت وهب. ثم ترسل إليه بعد عودته بتجارتها رابحًا، تخطب نفسها إليه وهو يصغرها بخمسة عشر عامًا. وتخوض الكتابات في كل اتجاه، بدوافع الحب أو الحقد، بين مستكثر على الشاب الوضيء والسيدة العفيفة أن يكون «الحب» دافعهما إلى عرض الزواج وقبوله، ومسرف في تفصيل ما ألـمّ بالسيدة من مشاعر، منذ أن رأت الشاب، أو ما اعتراه حين أرسلت تخطب نفسها إليه. بينما لا نكاد نخطئ - في خلفية هذه الكتابات - الحساسية المفرطة لدى الجميع

إزاء واقع السنوات الأربعين، التي كانت عمر السيدة خديجة في مقابل الأعوام الخمس والعشرين ، التي كانت عمر «محمد الأمين»، حين التقيا زوجين، ونرى الجميع فريقين من جديد، بين معتذر عن تلك السنوات الخمس عشرة- فارق العمر- بالتبرير والتسبيب، ومن يجدها ثغرة للوثوب منها وإليها، حين تشتهي الأضغان مطعنًا أو مثلبًا، يوذي بها السيدة والشاب الرشيد. ولا نملك - ونحن نمر على هذه الكتابات بخيرها وشرها- إلا أن نكتشف زاوية باهرة أخرى من زوايا الشجاعة المتكاملة، التي تميزت بها السيدة خديجة، منذ بداية تعرفنا إليها حتى لحظة ابتسامتها الأخيرة عند الرحيل بصحبة ملاك الموت، وهي ترجو لقاء الحبيب في الجنة، في بيتها الموعود من اللؤلؤ المجوف، إذ يخبرها النبي الرسول: «يا خديجة: إن الله يبشرك ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب!».

تقول الدكتورة بنت الشاطئ:

«... المستشرقين الذين فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم إلى الأمومة، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة: فمرجليوث يجعل لمال خديجة المكان الأول في زواج كهذا، بين شاب فقير، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بني مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن،.. ثم يمضي فيكتب كلمات تقطر سمًّا وحقدًا:

إن دعوة خديجة جاءت محمدًا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبي طالب، حين خطب إليه ابنته أم هانئ، فرده لفقره وزوّجها لذي مال. واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة في الزواج منه، حتى أقبل متلهفًا على الثراء، يداوي به جرح كرامته التي أهدرها فقره»[1] . وترد الدكتورة بنت الشاطئ غاضبة على المستشرق الذي يتشابه كلامه التافه هذا مع ثرثرة النساء الفارغات، فتقول: «وكذب مرجليوث، فما كان مال خديجة هو الذي جذب محمدًا وجعله يتجاوز عما بينه وبينها من فرق السن، وإنما جذبه إليها جمال شخصيتها ودماثة طبعها ولطف سجاياها. وكان ما بينهما من فرق السن كافيًا وحده، لأن يرضي حاجته الملحة إلى عطف الأمومة، التي افتقدها منذ كان طفلًا في السادسة، وظل على الأيام يجد لذعة الحرمان منها مرة المذاق...»[2] وتواصل الدكتورة بنت الشاطئ ردها على مستشرق وراء مستشرق، مفردة لثرثرتهم الفجّة وتصوراتهم المتخلفة جهدًا منها، لم يكن

---

(١) نساء النبي. دكتورة عائشة عبد الرحمن دار المعارف، ص٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص(٥٢، ٥٣).

له داعٍ أمام مكذبين – ابتداء– بنبوة الرسول ﷺ، فإشارات هؤلاء واهتمامهم بالبحث أساسًا في حياة نبينا الكريم، دافعها الأول محاولة فهم ما يرونه «لغز» الانتصار الساحق الذي أحرزه هذا «الرجل» الذي تزعم مجموعة من الأتباع، واستطاع أن يقتلع سلطان أكبر قوتين: قوة «الروم»، وقوة «الفرس»، ففي إطار نزع البعد «النبوي» من «محمد»؛ ليصبح مجرد «زعيم» أو «قائد» طموح للعرب، يصير من الممكن لهؤلاء «المحللين» أن ينظروا إلى سيرة حياة نبينا – المبعوث رحمة للعالمين – مثل نظرتهم إلى «نابليون» أو«بسمارك» أو«الإسكندر الأكبر» في أحسن حالاتهم، أو«هرقل»، و«يوليوس قيصر»، و«مارك أنطوني»، فيأخذ التحليل لديهم الظروف الموضوعية والذاتية التي تحكمت وأثرت في تكوين شخصية هذا «الزعيم»، فأدت به إلى اختيارات معينة، تحكمت فيها شهوته أو أهواؤه أو مصالحه، أو رواسب طفولته ومركباته النفسية. وأدت به إلى ما أحرزه من انتصارات أو ما أصابه من خذلان.

أما ونحن مؤمنون بمحمد «مختارًا» من الله نبيًّا ورسولًا و«مصطفى» من البشر؛ لتتم تربيته وإعداده وصناعته على«عين الله» تحضيرًا له، منذ أودعه الله جنينًا مباركًا في رحم أمه؛ ليكون أحسن الخلق أجمعين مؤهلًا لحمل عبء: «نبي آخر الزمان» الذي عليه أن يدعو أهل الأرض جميعًا ليعودوا إلى عقيدة التوحيد.

في هذا الإطار من الإيمان يصبح كلام المنصفين المدافعين مظهرين أسبابًا مادية لاختيار الرسول لخديجة أو لمحبة خديجة للرسول، غير ذات موضوع.

الشاهد أن خديجة لم تستشعر تفوقًا بمالها أو نقصًا بكهولتها، وأنها عندما ألقى الله محبة «محمد» في قلبها قدّرته بمعيار «النديّة»، فوجدته أكبر منها وأجل وأثرى فسقط المعياران: المادي والزمني، اللذان لم يكونا سوى صنم من الوهم، خضع له الناس في عجز وغباء.

أما محمد فيدفعه الله إلى خديجة عن تدبير، يفصله له بعد تزويجه لها بخمسة عشر عامًا، حين تتنزل عليه الآيات لتطمئنه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ٣] فيذكره بسابق نعمته عليه، حين ينتخب له عمه أبا طالب ليضمه إلى أبنائه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾؟وحين ينجيه من سابقة الشرك: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾؟ثم حين يختار له خديجة لتحبه وتطلبه وتشد أزره ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾؟

نعم هو الله وحده: سخّر خديجة لمحمد: صاغ قدرها وصاغ قدره؛ ليتم اللقاء بينهما «على قدر» في الزمان والمكان بلا أي سبب (عقلاني) ندعيه نحن، أو مادي يرجف به المستشرقون ومن معهم من أعداء الله والرسول.

وكما سخر الله هارون ليشد به عضد موسى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥] سخر الله خديجة لتكون واحدة من أربعة، شد الله بهم عضد الرسول الكريم، هم: أبو طالب، وعلي بن أبي طالب، والصديق أبو بكر. فما كان الله ليلقي برسوله أعزل وحيدًا في غابة قريش: قلعة الغرور والعصبية والشرك والعتو الجاهلي.

* خديجة *

تقدم «أبو طالب» إلى «عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصي»- عم السيدة خديجة- يزوجها لابن أخيه، محمد بن عبد الله، وبدأ قائلًا:

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعلنا حضينة بيته، وسُوّاس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوبًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس... ثم إن ابن أخي هذا، محمد بن عبد الله، لا يوزن برجل إلا رجح به، شرفًا، ونبلًا، وفضلًا وعقلًا. وإن كان في المال قُلٌّ، فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك»(١).

وتم الزواج السعيد، المدبّر بأمر الله، كأرقى ما يمكن أن يتم به زواج في أي عصر من العصور، قديمًا وحديثًا، وكأكمل ما يمكن أن يكون النموذج التقدمي في المعاملات والارتباط؛ حيث لا مكان لقيمة مادية زائلة، تقف مطمعًا أو حجر عثرة بين اثنين: «له فيها رغبة ولها فيه مثل ذلك!».

على مدى خمسة عشر عامًا عرفت خديجة، حتى قبل النبوة المعلنة، نزعة التأمل التي تميز بها محمد الأمين منذ طفولته وصباه، وها هي ذي تتعمق في شبابه ورجولته، نحو كهولته السامقة، المتوجهة لتنفيذ وعد الله ببعث نبي آخر الزمان. وعرفت خديجة أنها السكن لهذه الشمس التي رأتها- في رؤياها- تخرج من بيتها فتنير العالمين. عرفت في محمد الأمين إنكاره للأصنام التي تكدست أحجارًا عبر تراكمات الجهل والجاهلية؛ لتحيط البيت العتيق، مثابة

(١) مسلمات مؤمنات، محمد علي قطب ج١، المختار الإسلامي، ص٢١.

الناس وحرمهم الآمن بالرجس والرجز. وعرفت إنكاره للأصنام البشرية من كبراء مكة وجباريها واستعلائهم بالظلم والجور فوق مستضعفين أهدرهم الرق والفقر أو نقص (العزوة) والناصرين. ووجدته يأخذها ليلوذا معًا بـ«مكارم الأخلاق» بقايا من تعاليم بقيت مع البيت العتيق، منذ أقامه وأقامها إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، وما زالت تجد قوتها ودعمها رغم وحشية الجاهلية، ووثنيتها الضاربة أطنابها في المجتمع المكي. هذه التعاليم التي وجدت مؤيدين لها في قبائل من قريش، تداعت إلى «حلف الفضول» قبل مبعث الرسول-ﷺ- بنحو عشرين عامًا، وهو الحلف الذي باركه نبينا بعد الإسلام قائلًا: «لقد شاهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حُمر النعم، ولو أدعى إليه في الإسلام لأجبت». وفي هذا الحلف تعاقدت هاشم وزهرة وتيم بن مرّة على:

«ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها، وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس، إلا أقاموا معه وكانوا على من ظلمه؛ حتى ترد له مظلمته!».

نعم: لم تغب عن خديجة الطبيعة الخاصة التي تفرد بها زوجها العظيم، وعرفت على وجه اليقين أنه بين أشرافها أشرفهم، وبين عقلائها أعقلهم، وبين حكمائها أحكمهم، وبين أمنائها: المشار إليه وحده بـ«الأمين» و«الصادق»، لا ينازعه في الصنفين منازع. تفردًا يتزايد مع مرور الأعوام، حتى ألزم نفسه بعزلة ينفرد فيها بنفسه في غار حراء، في جبل على بعد ميلين من مكة، في رمضان، على مدى ثلاث سنوات قبل نزول الوحي.

تزوده خديجة بما يحتاج إليه من ماء وطعام قليل من الشعير، والتمر، متفهمة واعية حانية، عيناها عليه من بعيد، لا تغفل عنه، وحياتها المنزلية، وتجارتها مستمرة ناجحة رابحة، تراعي بيتها مع أولادها السابقين: علي بن أبي طالب وبناتها من محمد المفدّى: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وذكرى القاسم التي أذاقتها وفاته وأذاقت محمدًا الحبيب لذعة الثكل المرير.

دبّر الله للرسول المنتظر هذه العزلة في غار حراء، يتطهر ويتعبد الليالي الطوال، إعدادًا له لحمل الأمانة الكبرى، يعطيه الله خلالها الرؤيا الصادقة في النوم، «فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح». وعلامات النبوة تتقارب لا ينقصها إلا أن تتم باللقاء الصريح بين روح الله الأمين والنبي الرسول؛ المختار ليكون آخر وخاتم الأنبياء والمرسلين، حتى يرث الله الأرض ومن عليها!

وتتابع خديجة البشائر والدلالات، تتوقع السطوع الباهر بالحقيقة القاطعة؛ لتهتف معها بكل الفرح والشوق والتسليم:

«إنك لنبي هذه الأمة!»

في ليلة القدر في رمضان عام (١٣) قبل الهجرة.

روى ابن إسحاق عن وهب بن كيسان، عن عبيد، قال:« قال رسول الله ﷺ: فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. قال: قلت: ما أقرأ - (أو ما أنا بقارئ) - قال: فغطني به - أي ضغطني - حتى ظننت أنه الموت. ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ: قال: فغطني حتى ظننت أنه الموت...ثم أرسلني. فقال: اقرأ. قال: قلت: ماذا أقرأ ؟ قال: ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي. فقال:﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ قال: فقرأتها. ثم انتهى فانصرف عني. وهببت من نومي، فكأنما كتبت في قلبي كتابًا. قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل، صاف قدميه في أفق السماء يقول:

يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل. قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر. وجعلت أحول وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك. فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا أعلى مكة، ورجعوا إليها وأنا أقف في مكاني ذلك ثم انصرف عني وانصرفت راجعًا إلى أهلي، حتى أتيت خديجة فجلست مضيفًا إليها - أي ملتصقًا بها مائلًا إليها - فقالت:يا أبا القاسم أين كنت؟فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى . ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا بن عم واثبت..»[(١)].

تبين لنا هذه الرواية الشريفة، كيف نزل الوحي بآيات القرآن الكريم، وكيف ظهر جبريل عليه السلام للرسول ﷺ، يقول بإخبار وتعليم ووضوح: «يا محمد أنت رسول

(١) في ظلال القرآن، الشهيد سيد قطب، دار الشروق، ج٦ ص ٣٩٣٦ - وانظر أيضا السيرة النبوية - ابن إسحاق.

الله وأنا جبريل»، والرسول الراوية هو مصدر الخبر والتثبيت والإيمان بنبوته ورسالته، لهذا وقفت رافضة منكرة ما أورده الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه: (فاطمة الزهراء والفاطميون) حين يقول:

- «وابن عم السيدة خديجة ورقة بن نوفل الذي رجعت إليه حين بدا لها في اضطراب النبي عليه السلام عند مفاجأته بالوحي ما أزعجها، فركبت إلى ورقة تسأله لعلمه بالدين. وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود...»(١).

- «ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى، أنها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والإسرائيلية؛ لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها، بل سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة، وكتب الأديان...»(٢).

- «علامات للنبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين، ولولا أنها - أي السيدة خديجة - عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوّة هذا الفهم، لما كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة، وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم...»(٣).

هذا الكلام - ومثله كثير يتجه نفس الاتجاه - يقلب المنطق وينزلق إلى الزلل: فما كان لنبي مبعوث مثل رسولنا المختار أن تأتيه الطمأنينة من خارج قلبه، ولا أن يأتيه التأكد بخبر رسالته من مصدر غير تلقيه المباشر من الله، سبحانه وتعالى، عبر جبريل الروح الأمين.

أيحتاج الرسول أن تذهب به خديجة إلى ورقة أو غيره ليؤكد له أو ينفي وقد ملك الحق كله حين رأى لتوه ما رأى وسمع ما سمع أن «**يا محمد. أنت رسول الله وأنا جبريل**»؟

وهل تقررت نبوة الرسول الكريم بمعرفة خديجة لعلامات النبوّة، مما مكنها من تصديقها، و«صرف الوجل والخشية عن نفس الرسول...» كما تعني كلمات الأستاذ العقاد ؟ فهل يعني هذا أنها لو لم تعرف علامات النبوة، ولم تصدقها لما تقررت النبوة للرسول المفدّى ولظل به «الوجل والخشية» ؟

أعوذ بالله العظيم!

---

(١) فاطمة الزهراء والفاطميون، عباس محمود العقاد، دار الهلال، ص٩.
(٢) المصدر السابق، ص٩.
(٣) المصدر السابق، ص١٠.

الأقرب للإيمان والعقل أن السيدة خديجة قد هرعت، بعد سماعها حديث الرسول المفدّى، إلى ابن عمها، وإلى من عنده علم الكتاب لتزف لهم البشرى والخبر، بأن «نبي آخر الزمان» قد بعث يقينًا، مصدقًا لما بين أيديهم من علم مؤتمنين عليه، وأن هذا النبي الرسول هو محمد بن عبد الله، وأن عليهم أن يؤمنوا به ويسلّموا تسليمًا!.

وهذا تمامًا ما نلمسه من ورقة بن نوفل -رضي الله عنه - حين قام من فوره، وقبل رأس الرسول معلنًا الشهادة له: «والذي نفسي بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولتكذبن، ولتُؤْذين، ولتُخرجَن، ولتُقاتلن، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه... نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، ليتني أكون فيها جذعًا... ليتني أكون حيًّا!

بأبي أنت وأمي يا رسول الله!

ما إن تبدأ أخبار بعثته تخرج من بيت خديجة، الذي أسلم كل من فيه، والآيات تنزل تباعًا، وتلقفها خديجة، حفظًا وتسليمًا ووعيًا وطاعة، من فم الرسول المفدّى، ودائرة الإيمان تتشكل وتتسع؛ حتى تأخذ دائرة الكفر دورها في المواجهة، تشتد يومًا بعد يوم، شراسة، وسفاهة، وتحفزًا، وتربصًا، وسخرية وتشويهًا. وقد جُمع الشعراء والخطباء والبلغاء، ليتصدوا لآيات القرآن المنزل نورًا وإعجازًا.

ويصنع الوليد بن المغيرة طعامًا لقريش، وبعد أن أكلوا منه قال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم: ساحر. وقال بعضهم ليس بساحر. وقال بعضهم: كاهن. وقال بعضهم: ليس بكاهن. وقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: ليس بشاعر. وقال بعضهم: بل سحر يؤثر. فأجمعوا رأيهم على أنه سحر يؤثر. ويبلغ هذا التكذيب النبي فيحزن، ويتدثر لينام، فأنزل الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ . - [في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب، ج ٦ ص ٣٧٥٢].

وتتوالى الآيات بالتكليف المتصاعد نحو الصعوبة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾

والرسول المفدّى يعلنها لخديجة: «مضى عهد النوم يا خديجة!».

وخديجة لها!

كلما احتدم الموقف واقتربت لحظة الصدام الحتمي، مع قريش تزداد إشراقًا وشوقًا للمعركة الحاسمة بين الإسلام والكفر: بين التوحيد والشرك.

ويقول لها الرسول ﷺ:

«يا خديجة، إن جبريل يقرأ عليك السلام من الله رب العالمين».

فتقول خديجة، في فيض من البهجة: «الله السلام، ومنه السلام، وإليه يعود السلام، وعلى جبريل السلام!».

إذ أغمض عيني لأتصورها لا أرى تفصيلًا لوجه أو هيئة، لكني أرى حركة دائبة: لا تتوقف حتى ولو لحزن أو لوعة للثكل، الذي تجدد بوفاة عبد الله الذي ناداه الرسول بالطيب والطاهر، لكونه قد ولد في الإسلام وبعد أن بلغت خديجة الخامسة والخمسين!

حركة عطاء منهمر، خزائنها مفتوحة للمسلمين وأموالها تتدفق إلى كل سبيل لله؛ تدفع عن هذا الغرم وتقضي عن ذاك الدين، وتسارع إلى الأرقاء المعذبين؛ تشتريهم وتطلقهم، وتستعمل من يطردهم القرشيون من تجارتهم وأرزاقهم.

والحجارة تتساقط مستمرة من السفهاء: تضرب بيتها وتؤذي زوارها، وتتصدى بالصمت والإهمال للفحش المنهمر، من جارتها البغيضة أم جميل، صاحبة النار والمسد هي وزوجها أبو لهب. وفي كل هذا: خديجة آخذة بيد الرسول المفدي تمسح عنه الأذى وتغسل الأقذار الملقاة عليه. ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

بأبي أنت وأمي وابنتي يا رسول الله!

ويأذن الله للمسلمين بالهجرة فأبشري يا خديجة، وهيا.. مجال جديد لإغداقك وعطائك: من تجهيز للمسافرين إلى صبر على الفراق عن الابنة الغالية رقية التي عزم زوجها عثمان بن عفان على الهجرة مع المهاجرين إلى الحبشة، فراقٍ لا لقاء بعده إلا في الجنة حين تسبق خديجة إلى الرحيل قبل عودة الابنة المهاجرة !

ومع رؤية المسلمين يهاجرون والدعوة معهم يحملونها إلى خارج الجزيرة العربية: لا مكة وحدها، ومع أمر الله بأن تكون الدعوة جهارًا، يطيش سهم المشركين البغاة، وتعلن قريش حربها المستعرة:

الحصار الاقتصادي!

تجويع المسلمين ومن يواليهم!

والتهديد: منع القوت أو التخلي عن« محمد»!

وكتبت قريش كتابها، تتعاهد فيه على ألا تبيع شيئًا أو تبتاع شيئًا من محمد وأتباعه. ولا مخالطة ولا مصاهرة وأن تكون قريش يدًا واحدة على من يعطف أو يساند «محمدًا»! وتعلق هذه الصحيفة على الكعبة (بيت الله) !.

واجتمع بنو هاشم وبنو عبد المطلب - إلا أبا لهب وأم جميل - وقرروا، رغم عدم إسلام بعضهم، الاتحاد أمام هذه المعاهدة الشريرة التي ناقضت حلف الفضول بانهيار إنساني وأخلاقي لم تعرفه العرب!

وتقدمت خديجة بما تبقى لها من مال وزاد وعتاد، تسير مع المسلمين خلف الرسول المفدّى داخلين جميعًا - ليواجهوا معًا حرب الفجّار - بشعب أبي طالب عند الجبل. حتى أذن الله بتحطيم هذا الحصار، بعد سنوات ثلاث من التعب والإنهاك وخديجة قد شارفت على الخامسة والستين.

وهن الجسد، لكن العزيمة والروح كانتا أصلب وأقوى، والمسلمون أكثر عددًا.

سقط تهديد قريش بالاختيار بين الخبز أو «محمد»!

فلم يكن الإسلام أبدًا ثورة من أجل الخبز!

إنه «دعوة» فوق «الثورة»: عقيدة إحياء كاملة للإنسان، تعيده لفطرة التوحيد، حيث ينعتق الإنسان من كل عبودية سوى عبوديته للفرد الصمد. فلا عبودية لملك أو لسلطان ولا عبودية لاحتياج من شهوة جسد أو معدة. إنه التحرر العزيز من كل ما يمكنه أن يكسر أنف الكرامة للإنسان، أو يغل ساق إرادته. فأنى لحصار مادي يدور في الفلك التافه للطعام والشراب والمتاع أن يفت في عضد مجاهدين - على رأسهم الرسول المفدّى ووراءه خديجة الباسلة - قد أسلموا وجوههم لكنف الله، معاهدين على أن تكون العزة لله جميعًا، وللرسول من بعده وللمؤمنين ؟: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

سقط الحصار القرشي وانتصر المسلمون في المعركة وكان لا بد أن يكون للمعركة شهداء.

وخرجت خديجة السكن الرؤوم: شهيدة معركة: الخبز أو «محمد»!

رحلت خديجة في رمضان عام الحزن قبل ثلاث سنوات من الهجرة: منذ (١٤٠٦) من سني الزمن الإسلامي.

بعد الهجرة بسنوات، يعود الرسول المفدّى إلى مكّة بنصر الله والفتح، وقد أنجز الله وعده بتمكين دينه الذي ارتضاه لخلقه ويقف عند قبرها وقد دمعت عيناه الشريفتان، نعم يا خديجة ها هي ذي مكة القاسية، وقد تاب الله عليها وغسل عنها أوساخ الجاهلية وأوثانها، وها هو ذا البيت العتيق يعود كما كان: خالصًا لله وحده!

* خديجة *

ويخط الرسول أربعة خطوط في الأرض ثم يقول: «هل تعلمون ما هذا؟». فيقولون: «الله ورسوله أعلم».

فيقول: خير نساء العالمين أربعة: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ».

وأمام ذكراها تنزوي تسع نساء باهرات، لكل واحدة منهن وهجها وشموخ رصيدها، في الجهاد، والفداء، والجود، والتقوى، وحب رسول الله، بينهن عائشة بنت أبي بكر: صاحبة المكانة

العزيزة في قلب النبي الكريم التي تعترف: «ما كنت أغار من زوجة مثلما كنت أغار من خديجة، مع أنني تزوجت الرسول بعد وفاتها بثلاث سنوات، لكثرة ما كان رسول الله ﷺ يذكرها».

وتدفع هذه الغيرة عائشة لتقول مرة:

«لقد أبدلك الله خيرًا منها!».

فيغضب الرسول الحليم حتى يهتز مقدم شعره من الغضب وهو يجيب:

«لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها:

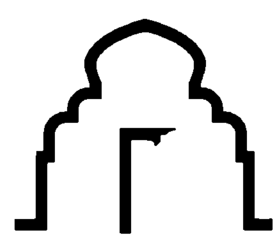
آمنت بي إذ كفر الناس

وصدقتني إذ كذبني الناس

وواستني بمالها إذ حرمني الناس

ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء!».

❊ ❊ ❊



أم أبيها
فاطمة بنت محمد

تأخذني سيرة الزهراء (فاطمة بنت محمد) إلى جوف بحر الحزن المتلاطم، وترميني هناك أغالب الموج العاتي، لجحا من الشجن والوجع يخلع القلب الذي تستبد به الذكرى، وتعصره الآلام).

وأقف سيدتي

أقف جدتـي

أقف بين أيامك الخالدات ترجفني الدموع: أرقب نحولك، وضعف جسدك الذي كان عليه أن يتحمل ما لو ذقت طرفًا منه - وقد ذقت الكثير - لتضعضعت وتفتت، وذابت مني العظام.

لكن

هذا كان قدرك يا فاطمة بنت محمد ! مرسوم، مدبر بحكمة شاءها الله فكانت، وكان قدرك أن تكوني المثال، والكمال، والتكامل، والقدوة.

القدوة لسرب وراءك لم ينقطع من المسلمات الرساليّات جئن، على مدار ومرور وتعرجات الزمن الإسلامي، ناظرات إليك، متأسياتٍ بك، متواسيات، يعرفن عندك عزة المسلمة، ويتعلمن صبرك.

سرب، وراءك يا فاطمة، لن ينقطع ما دامت ذكراك بازغة أبدًا، ومواقفك تُستحضر بقوة كلما همَّ باطل، تأخذه حميّة الجاهلية، ليعلو بصلف وغرور، فما يلبث حتى يقذف الله بالحق عليه؛ ليدحضه فإذا هو زاهق.

أولست النموذج الإسلامي الذي نشّأته البيئة النبوية لتترسخ فيه شمائل من أدّبه ربّه، فهو على ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ ؟

أولست فاطمة ؟

فاطمة، البتول، الزهراء، الطاهرة، المتعبدة، الزاهدة... التي كلما قرصها الجوع سجدت! وكلما هدّها التعب ذكرت، وكلما ألمت بها الحمى قالت:

«يا حي يا قيوم؛ برحمتك أستغيث.

اللهم أصلح لي شأني كلّه،

ولا تكلني طرفة عين إلى نفسي،

ولا إلى أحد من الناس»؟

ابنة محمد، وخديجة، وأخت الباسلات: زينب، ورقية - صاحبة الهجرتين - وأم كلثوم.

رفيقة على بن أبي طالب،

صاحب طفولتك، الذي كرم الله وجهه، فلم يسجد كما لم تسجدي أبدًا لوثن. علي زوجك، فتى الفتيان، وفارس الفرسان، وفقيه الفقهاء، والصلب الطاهر الذي خرجت منه ذرية نبينا الهادي، «جعل الله ذرية كل نبي من صلبه، وجعل ذريتي من صلب علي».

أم الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم:

وفوقهم يناديك نبينا الهادي:

«فاطمة، أم أبيها!».

نعم:

فتحملت بهذا وطأة المجد.

ودفعت ثمن التميز.

وحفظت بالحرمان والصبر أمانة مسؤولية كونك: ابنة الرسول المفدّى، الذي أدبك ورباك لتكوني: النموذج للرسالية المسلمة.

ولدت مع بشائر النبوة، ومحمد الأمين، يفض خصام القبائل في مكة، عند إعادة بناء الكعبة، وتنازعها شرف حمل الحجر الأسود، ووضعه في مكانه في (٢٠) من جمادى الآخرة في العام الثامن عشر قبل الهجرة.

تعلمت الخطو، وأبوها في غار حراء، يتطهر ويتعبد، وتأتيه الرؤى الصادقة كانبلاج الصبح، وتشربت منذ ذلك الحين روح أمها الحانية، الطوّافة حول الأب الذي لم تعرف قريش مثله: صدقًا وطهرًا وسموًّا.

ومع تنزيل الآيات على المبعوث رحمة للعالمين رددت، وهي بنت خمس سنوات:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ ونطقت:«**أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبد الله ورسوله**». نطقتها حفظًا، ووعتها معنى، وحملتها مسؤولية، كاملة وعاشتها حياة متصلة شهيقًا وزفيرا على مدى ثلاثة وعشرين عامًا.

دخلت «شعب أبي طالب» وهي في الثانية عشرة، عندما ضربت قريش بعتوّها الجاهلي، الحصار الباغي على الرسول وأهله، وصحابته ومن يواليه: فلا بيع ولا شراء، ولا مصاهرة ولا مكالمة ولا طعام ولا ماء، وقطع الطريق على من يبغي التسلل بزاد أو نجدة: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾: فهي المعركة الضارية؛ لإكراه المؤمنين على ترك اختيارهم العقائدي الحر بالإيمان بمحمد: رسولًا ونبيًّا، ولا رسول ولا نبي بعده، والإسلام لوحدانية الله سبحانه، أو: الموت جوعًا وظمأً في الشّعب الموحش في الجبل!

ورأت في هذه السن المبكرة كيف جاع المسلمون، من كبيرهم حتى طفلهم!، وكيف أكلوا ورق الشجر وما دونه، صامدين بالروح الشبعي بدين الله الحق.

وينضج إيمانها ليصير سمة شخصيتها الرئيسية، وتتفتح روحها تحت الحصار الكافر، بقوة وعناد يثقلان جسدًا، أكسبته سنوات الجوع الثلاث النحول والضعف، يلازمنها إلى نهاية عمرها الكادح الذي لم يتجاوز الثمانية والعشرين ربيعًا، يوم تحققت لها بشرى اللحاق بأبيها الرسول المفدّى بالجنة، في الثالث من رمضان في العام الحادي عشر من الهجرة.

وتأكل «الأرضة» المخبأة في الكعبة صحيفة تعاهد الكفار على الحصار، فلا تترك منها إلا اسم «الله» كما ينبئهم الرسول، لتخسأ قريش أمام الإرادة الإلهية، التي أذنت بإنهاء الحصار، بعد أن فتن فيه الظالمون: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ وامتحن فيه المؤمنون إيمانهم فكان لهم فيها كرهوا الخير رغم القرح: **«والله فعال لما يريد»**.

وتخرج الصبية من الحصار وقد صارت فاطمة الفتاة في الخامسة عشرة، قد حان آن زواجها لكن لا مجال؛ فقد اختبر قلبها الغض أولى جرعات الحزن الغائر، حين يختار الله أمها، خديجة، السكن الرؤوم؛ لتكون من شهداء ذلك الحصار، الذي باءت قريش بإثمه فينتهي ذلك الدور الفذ، الذي قدّره الله – بمقدار– لخديجة الخالدة، وليتاح لفاطمة، صغرى البنات، مواصلته، ظلًّا لخديجة وامتدادًا لها في ترتيب إلهي عجيب.

ولم يكن من المنظور أن تقوم زينب الكبرى بهذا الدور، فقد رسم الله لها حياة لا تقود لذلك. وقد توفيت في السنة الثانية للهجرة.

ولم يكن من المشيئة أن تكون رقية أو أم كلثوم، والأولى صاحبة هجرتين: واحدة إلى الحبشة، والأخرى إلى المدينة، وكلتاهما قد تزوجتا عثمان بن عفان صاحب النورين. فقد توفيت رقية في السنة الثالثة للهجرة وحلّت أم كلثوم مكانها بعدها في بيت عثمان، ثم توفيت في التاسعة للهجرة.

اختص قدر الله فاطمة بين شقيقاتها، الباسلات المحبات، لتمتاز، ومن البداية ولتكون لائقة لشرف إنجاب الذرية لنبينا الهادي.

أخذ الله من خديجة: القاسم والطيب مختبرًا رسولنا بوجع الثكل، بعد وجع اليتم؛ وليعود فيعطيه، عبر فاطمة وعلي، الحسن والحسين رحمة ومنة.

ولا يخفيها الرسول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ فيقول صلوات ربي وسلامه عليه:

«**جعل الله ذرية كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب علي**»– أخرجه أبو الخير والحاكمي مذكور في: زينب، الأستاذ علي أحمد شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ص ٦٥.

وانفردت مبكرة باستكمال دور «الحدب» و«الذود»، الذي كانت تتبع به خديجة الرسول حيثما ذهب في طرقات مكة وأنحاء بيتها العتيق.

خبرت كثافة الباطل حين يهيش ويحدق بالحق، ويبدو لوهلة من الزمن كأن لا نهاية له، الكلمة كلمته والصوت صوته والأمر بيده، وكأنه الغالب أبدًا، رأت كيف يستهين أهل الباطل بالحق!، كيف يقفون أمام نوره في صمم وعمى.

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر: ٤٥].

تهرول هالعة: «واكرب أبتاه» والحنق يثقله العجز والقهر، فلا تملك كبت شهقاتها وإخفاء نحيبها، وهي ترى النبي المفدّى ساجدًا في الكعبة، للذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وقد وضع السفهاء على ظهره «كرش بعير» وفق مؤامرة غليظة رسمها إمام الكفر والحقد «أبو جهل عمرو بن هشام» ونفذها التعيس «عقبة بن أبي معيط»، وسط ملأ ساخر يضحك، وقد طابت أنفسهم الفظة لمشهد الأذى بالرسول - روحي فداه.

وتزيح فاطمة عن أبيها الأذى فيأخذها إلى قلبه يهدئ من روعها: «يا بنية، لا تبكي فإن الله مانعٌ أباك » ثم يرفع رأسه الشريف وهو يدعو:

«اللهم عليك بقريش!

اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأميّة بن خلف وعقبة بن أبي معيط و....» وسابع نسى راوي الحديث اسمه. ويرى الناس كل هؤلاء في قليب بدر قتلى، ومعهم خزي الدنيا والآخرة، وقد شفى الله صدور المؤمنين وأذهب غيظ قلوبهم.

ومع تصاعد الأذى وضراوة المكر الجاهلي، تتعلم فاطمة الصبر وتعرف يومًا بعد يوم كيف تروض نفسها على كظم الغيظ أمام استهزاء قريش واستكبارها، فالله يسمع ويرى ويربط على قلب مختاره ومصطفاه:

- ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [القلم: ٥١-٥٢].

وتتربى فاطمة بالقرآن وتقرأ وراء الرسول:

﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

ثم تقرأ:

- ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام: ٢٦].

ثم تقرأ:

- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤].

ثم تقرأ:

- ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وتتمكن «الحكمة» من قلب فاطمة وصدرها، وهي توالي حفظ كلام الله، وتتأمل آياته: متبتلة، خاشعة، قانتة، لا تعرف لغوًا ولا هذرًا، متخلقة بخلق أبيها الذي كان خلقه القرآن. وتشهد عائشة أم المؤمنين بعد سنوات، فتقول: «ما رأيت أحدًا من خلق الله أشبه حديثًا ومشيًا برسول الله ﷺ من فاطمة» وتقول: «ما رأيت أحدًا أصدق في لهجة من فاطمة، إلا أن يكون الذي ولدها ﷺ».

ويكسبها الورع والتقى مع الطقس الجهادي الرسالي الذي تعيشه كاملًا وقارًا ومهابة وثقلًا، لم يعرف لامرأة في مثل عمرها، وتشهد لها عائشة مرة أخرى:

- «ما رأيت أفضل من فاطمة» و«...إن كنت لأظن أن فاطمة من أعقل نسائنا..».

وتعيش سنوات العسرة الثلاث - ما بين وفاة السيدة خديجة وهجرة الرسول وقبل زواجه - مؤكدة للرسول بثباتها، وإلزام نفسها الصبر والتحمل الهادئ، أنها الرسالية الجديرة بأن تكون «السكن» الباقي أثرًا من ظل أمها الرؤوم. فيجتمع فيها، مع تشابهها التام بالرسول المفدّى، بيت النبوة كاملًا، ولا يجد الرسول ما يصف به موقعها الفريد هذا إلا أن يدعوها:

- «فاطمة أم أبيها!».

يأمر الله رسوله بالهجرة فيهاجر ومعه الصديق أبو بكر إلى يثرب: المدينة المنورة، وسط ملابسات خطرة تتهددهم، «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» وينام علي بن أبي طالب مكان الرسول في مكة ليغشى الله أبصار الكافرين، فلا يرون النبي المفدّى، وهو يمر من أمامهم، وقد جاؤوا عصبة - يمثلون القبائل - لقتله!.

وتتوالى هجرة المؤمنين من بعده وتهاجر فاطمة بصحبة أم كلثوم إلى حيث يجمع الله شمل المسلمين، ويكونون دولتهم بالمدينة المنورة: يثرب.

ويتزوج الرسول ابنة صاحبه في الغار: عائشة وغيرها من بعدها، ويتهيأ المجال لتتزوج فاطمة.

خطبها أبو بكر فقال الرسول: «يا أبا بكر أنتـظر بها القضاء» وخطبها عمر بن الخطاب فقال الرسول:«يا عمر أنتظر بها القضاء» فقالوا لعلي«اخطب فاطمة إلى رسول الله» فقال: «بعد أبي بكر وعمر» ؟ ثم خطبها، فقال ﷺ: «قد أمرني ربي عز وجل بذلك» وقال النبي لفاطمة: «إن عليًّا يذكرك» فسكتت، فعرف موافقتها، وكانت قد بلغت سن الثامنة عشرة.

قال أنس بن مالك: ثم دعاني النبي ﷺ بعد أيام فقال لي: «يا أنس.. اخرج وادع لي أبا بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار». قال: فدعوتهم فلما اجتمعوا عنده ﷺ وأخذوا مجالسهم، وكان علي غائبًا في حاجة النبي ﷺ، قال النبي: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه المهروب إليه من عذابه..» إلى أن قال: «...ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي، وإني أشهدكم أني قد زوجتها إيّاه على أربعمائة مثقال من فضة إن رضي علي بن أبي طالب بذلك على السنّة القائمة، والفريضة الواجبة». وعندما دخل علي تبسم الرسول في وجهه وقال: «إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة على أربعمائة مثقال فضة إن رضيت بذلك».

فقال: «رضيت بذلك يا رسول الله» ثم خرَّ لله ساجدًا.

وباع علي درعه «الحطيمة» وكان الرسول قد أهداها له وباع بعيرًا له فتجمع له أربعمائة وثمانون فقال له النبي:«اجعل ثلثين في الطيب، وثلثًا في المتاع».

وجهزها الرسول بقطيفة ووسادة من الجلد حشوها ليف، ورحيين وسقاء، وجرتين!.

وتقول عائشة وأم سلمة زوجتا الرسول:

- «أمرنا الرسول ﷺ أن نجهز فاطمة حتى ندخلها على عليّ فعمدنا إلى البيت، ففرشناه ترابًا لينًا من أعراض البطحا، ثم حشونا مرفضتين ليفًا، فنفشناه بأيدينا ثم أطعمنا تمرًا وزبيبًا وسقينا ماء عذبًا، وعمدنا إلى عود، فعرضناه في جانب البيت ليلقي عليه الثوب، ويعلق عليه السقاء. فما رأينا عرسًا أحسن من عرس فاطمة -!!- (مذكور في مناقب على والحسنين وأمهما فاطمة الزهراء، د. عبد المعطي أمين قلعجي، دار الوعي، حلب ١٩٧٩م).

هكذا كان جهاز بنت رسول الله، وهكذا كان عرسها!

ويدعو الرسول لهما: «اللهم إنهما أحب الخلق إلى فأحبهما وبارك في ذريتهما..».

ويتم هذا الزواج الذي أمر الله به وتولاه؛ ليكون صاحباه بما هما عليه وما ينجبانه أهل بيت الرسول.

عن صفية بنت شيبة قالت: «قالت عائشة: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل - أي كساء منقوش - من شعر أسود. فجاء الحسن بن علي فأدخله. ثم جاء الحسين فدخل معه. ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله. ثم قال: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجز أهل البيت ويطهركم تطهيرًا**» - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

والشاهد من هذا الحديث أن صفة أهل بيت الرسول تعني: فاطمة وعليًّا والحسن والحسين. من أجل هذا لم يأذن الرسول لعليٍّ بإدخال زوجة ثانية على فاطمة حفاظًا على خصوصية هذا البيت، وتميزه؛ لكونه يضم النماذج الإسلامية الرسالية، التي تربت على يد الرسول، فنشأها لتأتم بها أجيال المسلمين عبر القرون وتتمثلها.

* فاطمة *

جاءت فاطمة تقول للرسول: «إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحًا ابنة أبي جهل» - وكان أهلها يريدون أن يزوجوها بعد دخولها الإسلام بمن يليق بكبريائها- فقام الرسول إلى المنبر يقول:

«إنما فاطمة بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها. وإني لست أحرم حلالًا ولا أحل حرامًا. ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبدًا» ويقول: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب. فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن. إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم!».

ويتراجع عليّ عن الخطبة التي تم السعي بها إليه، ولم يكن هو ساعيًا إليها. ولا تؤثر هذه الحادثة في خصوصية هذا البيت الطاهر، الذي ظل للرسول سكنه، بل لعلها سجلت جانبًا في الحلال يمكن أن يبغضه القلب وينفر منه الذوق، وتؤذي منه النفس !.

ويستمر الرسول المفدّى في إغداقه الحب والود وطيب الكلم لفاطمة وعلي وأولادهما، حتى تقول عائشة: «أحب الناس إلى قلب الرسول فاطمة وزوجها» رغم أن عائشة قد أغاظت فاطمة يومًا بقولها: «أنا البكر الوحيدة التي تزوجها رسول الله!» فقال الرسول المحب لابنته:

«قولي لها وأمي خديجة الوحيدة التي تزوجت أبي وهو بكر!» وكان هذا التلطف ومعه المواساة كل ما يملكه الرسول المفدّى لابنته البتول إذا أتى من سفر بدأ بالصلاة في المسجد، ثم يذهب إليها، ثم إلى نسائه. إلا أن هذا الحب المغدق كان معه التنبيه النبوي المتصل:

- «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها!».

- «يا فاطمة بنت محمد: اعملي فلن أغني عنك من الله شيئًا!».

- «ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء!».

ويرى في يد فاطمة يومًا سوارين من الفضة فلا يدخل بيتها حتى تخلعهما، وتبعث بهما إليه قائلة: «ابنتك تقرأ عليك السلام وتقول لك: اجعل هذا في سبيل الله».

فيفرح النبي المفدّى «قد فعلت فداها أبوها!».

ويراها بلال وهي تطحن وجسدها الضعيف لا يساعدها والصبي يبكي، فيطحن عنها ويقول له الرسول: «فرحمتها... رحمك الله».

لكن عندما يذهب علي ليسأله عن فاطمة، وقد جاءه سبي، أن يعطيهما منه من يساعدهما؛ لأن عليًا سقى حتى اشتكى صدره، وفاطمة طحنت حتى كلّت يداها واخشوشنتا، يرفض صلوات

الله عليه: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»، ثم ما لبث أن يذهب إليهما وقد دخلا في قطيفتهما إذا غطت رأسيهما تكشفت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما انكشف رأساهما، وقال لهما:«ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قالا: بلى، بلى! فقال: «كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام، فقال:«تسبحان في دبر - نهاية - كل صلاة عشرًا وتحمدان عشرًا وتكبران عشرًا، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثًا وثلاثين واحمدا ثلاثًا وثلاثين وكبرا أربعًا وثلاثين..».

وتتتابع الروايات، وتتوالى الصفحات، ولا نرى فاطمة إلا عاملة: مجهدة، مثقلة بالأعباء، تمر الأيام ولا يكاد يدخل جوفها طعام، وجسدها الضعيف يرهقها بالمرض أو الحمى، ويسألها نبي الله عن حالها فتقول: «إني لوجعة». ثم تقول: «وإنه ليزيدني أني ما لي طعام آكله...» وتدمع عينا النبي المفدّى: «يا بنية أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين؟!» وحين يمر عليها وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء خشن يبكي لمرآها وهو يقول: «تجرعي يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة»!.

* فاطمة *

همس الرسول في أذنها وهو في مرضه الأخير: فبكت ثم همس ثانية: فضحكت. فسألتها عائشة تفسير الضحك والبكاء في لحظتين متقاربتين، فقالت فاطمة: «ما كنت لأفشي سر رسول الله!» فلما توفاه ربه أعادت عائشة سؤالها، فأخبرتها فاطمة بأن الرسول كان قد أنبأها بأن الأجل قد اقترب فبكت، ثم أنبأها بأنها أسرع أهله لحوقًا به فضحكت!

وعاشت الزهراء بعد وفاة الرسول ستة أشهر، تترقب متلهفة لحظة تحقيق النبوءة لتلحق به. ولم يرها أحد تبتسم بعد رحيل النبي المفدي: يزيد من حزنها غضبها النابع من رؤيتها أن الحق يؤخذ من أصحابه.

وكان موقفها واضحًا حاسمًا جابهت به أبا بكر وعمر: لا طمعًا في دنيا، وهي تعلم أنها على بوابة الرحيل، ولكن إحقاقًا لما شهدت أنه حق ومصلحة للإسلام والمسلمين.

وحين استشعرت قرب الرحيل سألت صاحبتها أن تسكب لها غسلًا. قالت صاحبتها: «فسكبت لها فاغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل» ثم طلبت ثيابها الجديدة ولبستها ثم قالت: «قد اغتسلت، فلا يكشف لي أحد كتفًا!».

ثم شاءت أن توارى في شيء فقالت لها صاحبتها أسماء بنت عميس: «إني رأيت في الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير». فأعجبها ذلك وقالت: «سترتموني ستركم الله!». واستقبلت القبلة وهي تبتسم لأول مرة منذ وفاة الرسول المفدّى والأب الحبيب.

وحملها عليّ ليلًا كما أوصته ليدفنها ومن دون أن يخبر بجنازتها أحدًا والحسن لم يتجاوز الثامنة، والحسين لم يتجاوز السابعة، وزينب تتعثر في الخامسة !، وأم كلثوم دون ذلك.

* فاطمة *

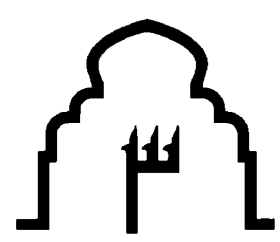
- «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم ابنة عمران».
- «إذا كان يوم القيامة، نادى منادٍ: يا معشر الخلائق طأطئوا رؤوسكم حتى تجوز فاطمة عليها السلام».
- «إذا كان يوم القيامة، نادى مناد من وراء الحجاب: غضوا أبصاركم عن فاطمة بنت النبي محمد حتى تمر».

* فاطمة *

فديتك عمري يا فاطمة بنت محمد،

وسلام عليك يا ابنة رسولنا المفدّى يا زهراء. وما زال أبناؤك يأتون مرابطين إلى يوم القيامة يغضبهم، سيدتي، ما يغضبك. ويريبهم، جدتي، ما رابك؛ لأنهم يعلمون أن ما يغضبك يغضب الرسول، وما يغضب الرسول، يغضب الله سبحانه وتعالى.. الذي أرسل أباك بالهدى ودين الحق: مبشرًا ونذيرًا: وداعيًا إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا.

***



أم الشهداء
زينب بنت علي

إن كنت قد قتلت بكاءً عند أمك فاطمة، فكيف يكون حالي عندك يا زينب بنت علي؟

إلا أن الدموع لم تكن قط لترضيك، فكرهتها لما أتيتك، وبلعتها نارًا.

وأمسكت شهقاتي، مكظومة، لأقف وراءك، أتعلم كيف يكون الفعل حين لا يكون الوقت لائقًا للبكاء. وكيف يغرق الصدق في انهمار الدمعة الكذوب من عين الذي قتل،

والذي سلب،

والذي انحاز للصمت، فجرت الدماء من تحت أنفه ولم يحرك ساكنًا ثم أتى،

والرؤوس على الحراب والخيام محروقة والحرائر الكريمات سبايا، ثم أتى يبكي!

* زينب *

حين سال النفاق دمعًا واختلط البكاء سقطت معاني الشفقة، وأدركتها من فورك، أن هذا البكاء مريب، فرفضت يا زينب المواساة، ورأيت العداء في النحيب، كما رأيته في النبال الساقطة على «عترة» جدّك المفدّى، والسيوف الذابحة أهل بيته، وصوته الشريف ما زال يطوف بالضمائر:

- «أذكركم الله في أهل بيتي،

أذكركم الله في أهل بيتي،

أذكركم الله في أهل بيتي!».

يجلجل صوتك يا ابنة بنت رسول الله، صوتك الذي عرفته الليالي متبتلًا خاشعًا ذاكرًا، يجلجل صوتك حاسمًا صارمًا:

- «صه يا أهل الكوفة ! يقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم يا أهل الكوفة ؟! يا أهل الختل والغدر: أتبكون ؟ فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنة: إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا تتخذون أيمانكم دخلًا بينكم...

ألا بئس ما قدَّمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون...

أتبكون وتنتحبون ؟.

إي والله... فابكوا كثيرًا واضحكوا قليلًا، لقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل أبدًا، وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة! مدرة - المدافع عن- حجتكم ومنار محجتكم وملاذ خيرتكم، ومفزع نازلتكم، وسيد شباب أهل الجنة، ألا ساء ما تزرون!

فتعسًا ونكسًا وبعدًا لكم وسحقًا، فلقد خاب السعي وتبت الأيدي، وخسرت الصفقة، وضربت عليكم الذلة والمسكنة!

ويلكم يا أهل الكوفة!

أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟

لقد جئتم شيئًا إدّا، تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدّا...

فلا يستخفنكم الـمُهل، فإنه لا يحفزه البدار، ولا يخاف فوت الثأر، وإن ربكم لبالمرصاد!»

ووراءك، يا زينب، كربلاء: كرب وبلاء: لتوّك تركتها، مصاصة دم شريف، وآكلة أجساد عطرة.

- «... ثلاثة وسبعون شهيدًا ثبتوا أمام أربعة آلاف حتى قتلوا عن آخرهم»!

عون ابن زوجها عبد الله بن جعفر وأخوه محمد، وإخوتها من أبيها أولاد علي: العباس، وجعفر، وعبد الله، وعثمان، ومحمد الأصغر، وأبو بكر، وابنا أخيها الحسين: علي وعبد الله، وابنا أخيها الحسن: أبو بكر والقاسم، وبنو عمها عقيل: جعفر، وعبد الرحمن، وعبد الله وغيرهم، وعلى رأسهم جميعًا سبط الرسول: الحسين: استشهد الجميع بين ذراعيها وهي تقول: «اللهم تقبّل منا هذا القليل من القربان»!

هطل الجور والعسف وغرور الدنيا على أرض كربلاء مطرًا نجسًا، ترتوي منه بذور حقد جاهلية، كان الإسلام قد دفنها طي سماحته حين كانت: «اذهبوا فأنتم الطلقاء »! حمامة يطلقها الرسول لترفرف بالرحمة فوق الثأر، وفوق عدل القصاص!

وكان حتمًا أن يروي مطر الجور بذرة الحقد القديم فتينع: كربلاء!

وكربلاء بذرة كانت في صلب الاستهزاء الفظ بالنبي وتكذيبه وإيذائه «بكرش البعير»!

كربلاء كانت سطرًا في حلف قريش الذي فرض حصار الجوع والعطش على العصبة المؤمنة في شعب أبي طالب.

وكربلاء كانت رنينًا في صرخة أبي جهل:

- «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى تدرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه».

وكربلاء كانت في نفر القبائل الذي اجتمع ليقتل محمد بن عبد الله، الذي ظنوه نائمًا فإذا النائم علي بن أبي طالب، المُفْتَدِي بروحه حياة نبيّه ورسوله ومربيه: ابن عمه وأخيه محمد الأمين.

وكربلاء كانت رمحًا في قتلة الغدر بحمزة يوم أُحُد!.

وكربلاء كانت دقات على دفوف النساء المشركات، يرقصن على جثث شهداء المسلمين!، يقطعن الآذان والأنوف يعلقنها أقراطًا وقلائد، ويبقرن البطون يمضغن الأكباد، وقائدهم أبو سفيان يقول للنبي وأصحابه: «اعل هبل، الحرب سجال، يوم بيوم بدر!» ويكاد يكررها حفيده (يزيد) بعده بنصف قرن، حين تسقط بين يديه رؤوس الشهداء من أحفاد النبي وأحفاد أصحابه، فيتغنى بأبيات من شعر الشماتة:

«ليت أشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا، واستهلوا فرحًا

ثم قالوا: يا يزيد لا تُشل!».

لكن الله أعلى وأجل !.

فيشاء سبحانه وتعالى أن يظل قول نبيه المبعوث رحمة للعالمين أمام عناد المشركين من قريش:

«والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». يظل هذا القول راية نبوية، يحملها «علي» ويستشهد تحتها ويحملها أبناؤه: الحسن والحسين، وكوكبة من نجوم أهل البيت الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا، ومعهم صحابة أبرار من الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدلوا تبديلًا، ووراءهم- على طول الزمن الإسلامي، ومن مشارق الأرض ومغاربها- تأتي قوافل من أبناء الإسلام، لا تنتهي ولا تنفد، بل تنمو وتربو كلما اشتد الحصار وسقط الشهداء.

فلا يمكن للشهيد أن يجدد نسله، وقد جعله الله أكثر الرجال خصوبةً، وما زال الإسلام الولود يكثر أبناؤه على طريق دين الله، والراية النبوية مرفوعة أبدًا تتبادلها الأيدي:

«والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

* زينب *

وردة طفلة تولد في بيت النبوة في شعبان في السنة الخامسة للهجرة، ويسميها الرسول المفدّى: «زينب».

ومع الفرحة تكون النبوءة، هذه الطفلة النبوية تنتظرها من أيام الجهاد أشقها وأثقلها على القلب وطأة «...فهم يذكرون أن سلمان الفارسي أقبل على عليّ بن أبي طالب يهنئه بوليدته، فألفاه واجمًا حزينًا يتحدث عما سوف تلقي ابنته في كربلاء... ! »-(مذكور عند د.بنت الشاطئ، السيدة زينب بطلة كربلاء، دار الهلال، ص ٢٠).

وتحت ظلال هذه النبوة تنمو زينب في كنف الرسول مع أمها فاطمة سنواتٍ خمسًا، أو تقارب الست، وتدرج طفلة رصينة ناضجة، لا تفارق أمًّا مجاهدة متبتلة، تسابقها في إسباغ الوضوء، وتلاحقها في إقامة الصلاة ترشف وتتعلم، وتحاكي كل حركة وسكنة تفعلها الأم البتول التي هي: «أشبه خلق الله بالرسول ﷺ». و«فاطمة» تحتضن«زينب» بين ابتسامة ورقرقة دمعة تدعو لها:

«جعل الله فيك الخير يا زينب، وفي أبنائك البررة الأتقياء، وكأني يا ابنتي أنظر إليك وأنت تدافعين عن الحق المهضوم، بمنطق فصيح ولسان عربي مبين».

ثم تأتي اللحظة التي تلحق فيها الأم القدوة بأبيها العظيم في رحاب الله، حزينة، غاضبة وقد أوجعها أن ترى الحق يخرج من مكمنه وبشفافية التقى والتبتل تراه، وقد استدرجته الأهواء ليكون

كرة تتقاذفها العاصفة الفاتنة، التي سوف يستشهد فيها زوجها وأبناؤها وأهل بيتها، صرعى مجندلين، لا يؤنسهم إلا الحق في وحشة الطريق.

وغريب، لا تشعر «زينب» بثقل هذا اليتم الرهيب المبكر، حين يفقد الإنسان أمًّا ليست ككل الأمهات. فكأنها استثقلت على أمها مواصلة الحياة بعيدًا عن النبي المفدّى، فآثرت لها سعادة اللقاء به على مرارة الفراق عنها فداء لها وبرهان حب سخي.

وتوصيها فاطمة في ثقة واحترام، أن تكون«أمًّا لأخويها الحسن والحسين»!

وتنفذ «زينب» الوصية بدقة والتزام فتكون أمًّا حقيقية، وهي لم تتجاوز السادسة ولا تفارق أخويها حتى بعد زواجها وزواجهما، لتبقى دائمًا أمًّا لهما، ثم لتصير من بعد ذلك أمًّا للشهداء في كل زمان ومكان!

وأغمض عيني وأطرد من ذهني كل أوصافها التي خاض فيها المؤرخون والرواة والكتّاب - سامحهم الله - فلا أرى تفصيل هيئة أو وجه لكنني أراها:

خديجة تعود..

خديجة السكن الرؤوم!

ويدخل بيت علي ثماني نساء زوجات له بعد فاطمة الزهراء معظمهن أرامل شهداء، وإخوة في الجهاد، أو يتيمات كريمات، سوف يجدن في بيت إمام العلم حماية ورعاية وتربية، وإعدادًا طيبًا ليكن رساليات حاملات للعلم والفقه.

ويحتفظ بيت علي لزينب بموقعها: أمًّا لأخويها، وتلميذة لباب مدينة العلم النبوي. فتجلس بين يدي أبيها علي يعلمها تفسير بعض الآيات ويأخذه الحديث إلى ما ينتظرها من دور خطير فتومئ زينب برأسها: «أعرف ذلك يا أبي..أخبرتني أمي!».

وتسمع عن أنس بن مالك يقول:«كنت عند النبي ﷺ، فرأى عليًّا مقبلًا فقال: يا أنس. قلت: لبيك، قال: هذا المقبل حجتي على أمتي يوم القيامة» فتأخذها المسؤولية منذ البداية؛ لكي لا يفوتها من أبيها ما لم تستطع أن تأخذه مباشرة من جدها رسول الله وخاتم أنبيائه، وقد عرفت قول الرسول المفدّى: «علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي».

فتعلمت بعلم أبيها الذي وصفه ابن عباس: «والله لقد أعطى علي تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شارككم في العشر العاشر»! وحفظت بلاغته وحكمته ومأثوراته في القضاء:

«أتى عمر بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور، فأمر برجمها فرده علي وقال: هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها ؟ ولعلك انتهرتها أو أخفتها. قال: قد كان ذلك. قال: أو ما سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا حدَّ على معترف بعد بلاء، إنه من قيّد أو حبس أو تهدد فلا إقرار له. فخلى عمر سبيلها» - (مذكور عند الأستاذ علي أحمد شلبي، زينب، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة التعريف بالإسلام) (١٩٧٧، ص٧٠).

ويزوجها أبوها الإمام علي من ابن عمها عبد الله بن جعفر، الذي قال عنه فقراء المدينة: ما عرفنا ما السؤال إلا بعد وفاة عبد الله بن جعفر، وكان والده هو جعفر ابن أبي طالب، الذي اشتهر باسم «جعفر الطيار» إذ بشر الرسول صلوات الله عليه أرملته بعد استشهاده بأن الله قد أعطاه جناحين في الجنة ثوابًا لقتاله حاملًا الراية في غزوة «مؤتة» في جهاد أمر به الرسول المفدّى ضد الروم، وظل جعفر يقاتل حاملًا الراية حتى قطعت يداه واستشهد، وبه ما يزيد على التسعين طعنة!.

وأنجبت السيدة زينب من عبد الله بن جعفر محمدًا المسمى بجعفر الأكبر وإخوته عونًا الأكبر وعليًّا الأكبر وأم كلثوم، وأم عبد الله، وقد توفوا جميعًا دون عقب، إلا عليًّا الأكبر وأم كلثوم، فكان منها ذرية عقيلة بني هاشم. إلا أننا، مع أخبار هذا الزواج والأبناء، لا نراها إلا في إطار الابنة للإمام علي، والأم الملازمة لأخويها الحسن والحسين، سيدى شباب أهل الجنة، وقرة عين النبي المفدّى، حافظة لوصية أمها الزهراء، منذ كانت في السادسة من عمرها، وعندما نراها في هذا الإطار نجدها العالمة، المتفقهة الدارسة، القارئة الحافظة لكتاب الله العزيز، المتأملة في آيات الله، الزاهدة المتحرجة من حلال الدنيا، المتصدرة لمجالس العلم النسائية، تروي الحديث عن أمها وأبيها وأخويها، وعن أم سلمة وأم هانئ، والمروي عنها من ابن عباس وعبد الله بن جعفر، وعلي زين العابدين وفاطمة بنت الحسين، والساهرة ليلًا تتهجد، مسبحة، داعية، ناطقة بالخير والمأثورات تقول أبياتها الشهيرة:

«سهرت أعين ونامت عيون

لأمور تكون أو لا تكون

إن ربًّا كفاك ما كان بالأمس

سيكفيك في غد ما يكون

فادرأ الهمَّ ما استطعت عن النفس

فحملانك الهموم جنون!»

وتقول:

- «**خفِ الله لقدرته عليك، واستح منه لقربه منك**»!

وتنقل عن أبيها: «نعم الحارس الأجل!» حين ينصحه ناصح بأخذ حارس يحميه من الخوارج. وتردد عنه: «ثلمة الدين موت العلماء!» و«شر الولاة من خافه البريء!»، و«خابت صفقة من باع الدنيا بالدين!»، و«يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم!».

وتتحاور مع أبيها الإمام فتسأله:

- أتحبنا يا أبتاه؟

فيرد قائلًا:

- وكيف لا أحبكم وأنتم ثمرة فؤادي؟

فتقول وكأنها قد أمسكت عليه خطأً:

- يا أبتاه، إن الحب لله تعالى والشفقة لنا!

محفوفة مبجلة بأبيها وأخويها، إذا أرادت الخروج، وغالبًا لزيارة قبر جدها رسول الله، خرجت ليلًا متدثرة بالحجاب الساتر الكامل، من الرأس حتى القدم، والحسن عن يمينها والحسين عن شمالها، والإمام علي أمامها، فإذا اقتربت من القبر الشريف، سبقها أبوها فأخمد ضوء القناديل خشية أن ينظر أحد إلى عقيلة بني هاشم: «زينب».

هذه الصورة الممعنة في الحرص الشديد على التستر والتحجب في (عزوة) الأب والأخوين، أحب الناس إلى رسولنا المفدّى، تواجهها بقسوة صورتها بعد مذبحة كربلاء وهي مقصوصة الأب والإخوة، وكل رجال ومحارم بيتها، منزوعة الستر، محترقة الخباء، منهوبة المتاع، منتهكة الحرمة، يسوقها رجال عبد الله بن زياد، مكشوفة الوجه، حاسرة الرأس، تسير في موكب السبايا الكريمات

من بنات رسول الله من كربلاء إلى الكوفة إلى دمشق إلى المدينة، يتطلع إليها وإليهن كلٌّ من غلبه حب الاستطلاع على حب اتقاء الله بغض البصر رحمة ومودة في قربى النبي المفدّى، ومنهن نائحات:

- «وامحمداه ! هذا الحسين بالعراء مرمل بالدماء مقطع الأعضاء، يا محمداه ! هذه بناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفي عليها الصبا!».

ويْ لنيران الغضب من جرأة السفهاء الذين- مع هذا النحيب - لم يكتفوا بالنظر، بل بادروا بالوصف والتغزل في محاسن وجه بنات رسول الله!

* زينب *

تمر أحداث التاريخ المعروف، وزينب في خضمها يومًا بيوم، بل لحظة بلحظة، والقضية أمامها، إسلام أو لا إسلام، حق أو باطل.

تأتي فتنة التآمر لقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان فيأمر علي بن أبي طالب ولديه: «اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدعا أحدًا يصل إليه بمكروه...».

لكن الأهواء ما تلبث أن تجعل الذين أثاروا النفوس على عثمان هم المطالبين بثأر عثمان، ويقفون مناوئين لخلافة إمام المتقين، وباب مدينة العلم، معلم الفقهاء؛ علي بن أبي طالب. ويعلنها بنو أمية حربًا سافرة على بني هاشم، إحياءً لثارات الجاهلية، وطمعًا في ملك الدنيا. ويخرج الصحابي الجليل عمار بن ياسر وعمره تسعون سنة يقول مهتاجًا:

«أيها الناس: سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان، ووالله ما قصدهم الأخذ بثأره، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرؤوها وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرغون فيه من شهواتهم ودنياهم، وما كان لهؤلاء سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الإسلام، أو الولاية عليهم...ألا أنهم ليخادعون الناس بزعمهم أنهم يثأرون لدم عثمان، وما يريدون إلا أن يكونوا جبابرة وملوكًا. والذي نفسي بيده، لقد قاتلت بهذه الراية مع رسول الله ﷺ، وهأنذا أقاتل بها اليوم!».

وتتحقق نبوءة النبي أن عليًّا سيقاتل قريشًا في سبيل الله: «يا معشر قريش لتنتهن أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن الله قلبه على الإيمان. قالوا: من هو يا

رسول الله ؟.. قال: هو خاصف النعل. وكان قد أعطى عليًا نعله يخصفها...» - أخرجه الترمذي عن ربعي بن حراش، وأخرج مثله أحمد.

ويقف علي- مبدئيًا- حاسمًا، لا يخشى في الله لومة لائم، ويعلنها: - «والله لا أداهن في ديني، ولا أعطي الرياء في أمري».

-«أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور؟ لا والله لن يراني الله متخذ المضلين عضدًا...».

«ما لي ولقريش. أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته، فقل لقريش فلتضج ضجيجها!».

وتقضي زينب سنوات خلافة أبيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في الكوفة من (٣٥هـ إلى ٤٠هـ) وهو في بحر متلاطم من الصراعات والمؤامرات والفتن، والكوفة معه، كما ستكون مع بنيه، مسرفة في الوعود متخاذلة في الأفعال ناكثة عهودها.

حتى تأتي ضربة عبد الرحمن بن ملجم في (١٩) رمضان عام ٤٠ لتقضي على الإمام الشهيد بعد يومين فينتقل إلى الرفيق الأعلى لاحقًا بحبيبه وأخيه ونبيه ورسوله في(٢١) رمضان عام (٤٠) الهجري. ووصيته: «يا بني عبد المطلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوضًا تقولون قتل أمير المؤمنين. ألا لا تقتلن بي إلا قاتلي. انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه، فاضربوه ضربة ولا تمثلوا به، فإني سمعت رسول الله يقول: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور».

ووقف الحسن يقول في رثائه:«... والله ما ترك ذهبًا ولا فضة...».

* زينب *

على أثر استشهاد الإمام علي بايع أهل العراق الحسن، لكن خلافته لم تدم أكثر من ستة أشهر، آثر الإمام الحسن بعدها، حقنًا لدماء المسلمين، أن يتركها لمعاوية؛ حتى تكف الفتنة وتهدأ الأطماع، لكن هل تشبع لبني أمية بطن؟!

يستشهد الحسن مسمومًا على يد زوجته «جعدة بنت الأشعث بن قيس» بعد أن يرسل إليها معاوية يقول:

«إني مزوجك يزيد ابني على أن تسمّي زوجك الحسن بن علي»! لكنه لا يزوجها يزيد خوفًا على حياته من «مسممة الأزواج» ويعطيها بدلًا من ذلك مائة ألف درهم!

وكان هدفه من وراء قتل الإمام الحسن تمهيد الطريق لأخذ البيعة ليزيد في حياته، كاسرًا النظام الشوري الإسلامي إلى وراثة قيصرية؛ لتكون ملكًا عضوضًا لبني أمية دون المسلمين أجمعين، ومن فيهم من أفذاذ بيت النبوة، وليبدأ أول انحراف أساسي في تاريخ الحكم الإسلامي؛ ليفرخ فيما بعد المزيد والمحزن من الانحرافات.

ويتصدى الحسين: لا مبايعة ليزيد!.

وتتسارع الأحداث نحو النبوءة التي أخبر بها رسولنا المفدّى، وأبكته البكاء المر، قبل حدوثها بما يزيد على نصف قرن: «عن أنس بن مالك أن ملكًا... استأذن ربه أن يأتي النبي ﷺ، فأذن له، فقال لأم سلمة: املكي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، قال: وجاء الحسين ليدخل فمنعته، فوثب فدخل، فجعل يقعد على ظهر النبي وعلى منكبه وعلى عاتقه، قال: فقال الملك للنبي: أتحبه؟ قال: نعم. قال: أما إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه، فضرب بيده فجاء بطينة حمراء، فأخذتها أم سلمة فصرتها في خمارها، قال: قال ثابت: بلغنا أنها كربلاء» - أخرجه الإمام أحمد وفي رواية البيهقي عن أبي الطفيل، وقال في مجمع الزوائد رواه الطبراني، وإسناده حسن.

وفي رواية أخرى أن جبريل عليه السلام أخبر الرسول المفدّى بأن الحسين يقتل بشط الفرات.

يموت معاوية دون أن ينجح في حمل الحسين على المبايعة أو سمه هو الآخر. ويأتي يزيد ويأمر الوليد بن عتبة واليه على المدينة بأخذ البيعة من الحسين. فيقول الحسين بحسم: «يا أمير، إنَّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد فاسق فاجر، شارب الخمر، وقاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق والفجور ومثلي لا يبايع مثله!».

ويوصي مروان بن الحكم الوليد بقتل الحسين، فيفزع الوليد: «ويحك ! أنت أشرت عليّ بذهاب ديني بدنياي، والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها وأني قتلت حسينًا: سبحان الله أأقتل حسينًا لما أنه قال: لا أبايع ؟ والله ما أظن أحدًا يلقي الله بدم الحسين إلا وهو خفيف الميزان لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم».

وتتوالى التفصيلات ويخرج الحسين من المدينة مع أهله إلى مكة، وهناك تأتيه كتب الكوفة تستحثه على القدوم لمبايعته والتصدي معه لعدوان يزيد: «... إن الناس ينتظرونك لا رأي لهم غيرك... العجل العجل... فأقدم إذا شئت، فإنما تقدم على جند مجند لك!».

فيرسل إليهم ابن عمه الوضيء مسلم بن عقيل فإذا بهم يتخاذلون حين تأتيهم فتنة عبيد الله بن زياد ! ويقتل عبيد الله بن زياد مسلم بن عقيل رسول الحسين، ومعه من آواه: هاني بن عروة المرادي، وهو يقسم: «قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام» ثم يسير بالظلم يجمع الولاء ليزيد يقتل عشوائيًّا في جاهلية وضراوة، ليتخاذل الناس خوفًا وهلعًا، ويعم العراق جو قاتل رهيب من الفزع والذعر.

بينما الحسين في مكة يستعد للتحرك إلى حلفائه الذين أهابوا به أن يعجل بالمجيء إلى العراق! ويتوسل إليه أحباؤه بمكة ألا يذهب إلى أهل الغدر، الذين خذلوا أباه وأخاه من قبل، ويقول قائل: «... فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك، ولئن قتلوك لا يهابون أحدا أبدًا».

والحسين يستخير الله، وقدر الله سابق: فقد شاء الله أن يهلك يزيد وجنده بقتلهم الحسين، وينجو الحسين وأهله بالاستشهاد على طريق دين الله ! ويقول الحسين:

-«ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله عز وجل وأني لا أرى الحياة مع الظالمين إلا جرما!».

ويتحرك الشهيد ابن الشهيد نحو الكوفة، وجنبات مكة لم تنس بعد جده النبي وصوته الشريف: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه».

ويأتيه من يخبره بمقتل مسلم ورسوله الآخر وتخاذل الكوفة: «أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم، فهم ألب واحد عليك، وأما سائر الناس بعدهم، فإن قلوبهم تهوى إليك، وسيوفهم غدًا مشهورة عليك!».

وما يلبث أن يبعث ابن زياد بألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي، ليحاصره في الطريق ويقطع عليه خط الرجعة حتى يأخذه معتقلًا إلى ابن زياد، أو يخضع بالبيعة الجبرية ليزيد.

ويواجههم الحسين خطيبًا بالمعروف يستحث ضمائرهم: «أيها الناس إن رسول الله ﷺ قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنة رسول الله ﷺ، يعمل في العباد بالإثم والعدوان فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الشيطان أن يدخله مدخله ! ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله... وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم،

وأنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن علي، ابن فاطمة بنت رسول الله... نفسي من نفسكم وأهلي من أهلكم... فإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي، فلعمري... لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم بن عقيل والمغرور من اغتر بكم».

فقال الحر: «... فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن».

فقال الحسين: «**أبالموت تخوفني ؟...**

سأمضي وما بالموت عار على الفتى

إذا ما نوى خيرًا وجاهد مسلمًا

وواسى رجالًا صالحين بنفسه

وخالف مثبورًا وفارق مجرمًا

فإن عشت لم أندم وإن مت لم أُلم

كفى بك ذلًّا أن تعيش وترغما!»

* زينب *

يتصاعد المكر، وتشحذ قوى الشر، وتأتي أوامر ابن زياد، تحمل تعليمات يزيد: «لا رحمة! امنعوهم عن الماء».

ومعسكر الحسين ينسج مجد الاستشهاد: ثلاثة وسبعون إنسانًا في مواجهة أربعة آلاف وحش غاشم من جند ابن زياد من الكوفيين !.

والأقمار من بيت النبوة من كل عمر، من لم يتجاوز العاشرة، ومن ملك فتوة الثامنة عشرة والعشرين، ومن بلغ مبلغ الرجال والكهول: يتلألأُون بالإقدام والشجاعة لا يقهرهم إلا العطش: «يا أبتاه العطش» والحسين يجيب «اصبر بني فإنك لا تمسي حتى يسقيك رسول الله».

وزينب بين الخيام والمعركة تتلقى الأقمار شهيدًا شهيدًا وأناتها رغمًا عنها تتوالي: «يا حبيباه! يا ابن أُخَيَّاه، يا ولدي، واثكلاه، اليوم مات جدي رسول الله! اليوم ماتت أمي فاطمة!، اليوم مات أبي علي، اليوم مات الحسن، وا حسيناه»

وتثخن الجراح حسينًا، ويتقدم التعس الذي باء بقتله. وبعده يحز رأسه، لترفعها الرماح إلى يزيد.

وترفرف كلمات الحسين حمائم تسكن أعشاشها في قلب زينب وبين جوانحها، تطوف بها، ترويها في كل الأمصار ولكل الآذان: حاضرة بأكملها كما أطلقها يوم الطف: يوم كربلاء وهو يتفرس في وجوه الكوفيين، الذين دعوه ثم جاؤوه قاتلين وراء عمر بن سعد:

- «ألست ابن بنت نبيكم؟».
- «... يا فلان... يا فلان... يا فلان ألم تكتبوا إلي... أن تقدم على جند لك مجنّد».
- «أتطلبونني بقتيل منكم قتلته ؟ أو بمال استهلكته؟ أو بقصاص من جراحة؟».
- «أعلى قتلي تجتمعون ؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبدًا من عباد الله، الله أسخط عليكم لقتله مني، وأيم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم، ثم ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون. أما والله لو قتلتموني لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دمائكم، ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم».

* زينب *

وينتهي الدور الحسيني: الاستشهاد البطولي والفداء ويبدأ الدور الزينبي الراوية، الشاهدة، الفاضحة للجور والبغي والطغيان. فإذا الذي ظن نفسه منتصرًا، يبوء بانتصاره الفادح، وإذا الذي ظنوا أنهم قد سحقوه وأحاطوا به وقتلوه متوج بالمجد لم ينهزم، وزينب تحمل راية الحسين المنتصرة، بعد أن ألقمت الجبارين وهي أسيرتهم أحجارًا بلعوها في خزي، بين أهليهم وحراسهم وبروجهم المحصنة، وإذا الحسين حي في زينب، أشد قوة وتمكينًا مما كان عليه، وأني لأعدائه بعد أن يقتلوه، وقد خرج من أسر الموت يتوالد عبر اللحظات والأيام كبيرًا كثيرًا، خالدًا، ويضج (عمرو بن سعيد) الأشدق، والي يزيد على المدينة، يشكو زينب: «إن وجودها بين أهالي المدينة مهيج للخواطر».

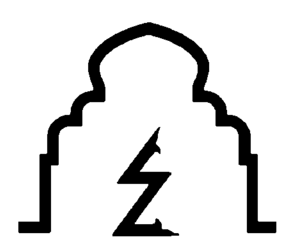
وتصدر أوامر يزيد المرتعب لتختفي زينب من المدينة.

وتأتي العزيزة ابنة الأعزاء، لتسعد بها كنانة الله وتخرج «مصر» إلى «بلبيس» لتأخذها إلى قلبها، مضغة رسول الله حانية على الجراح !.

وفي شهر مولدها: شعبان عام (٦١) للهجرة، وقد بلغت السادسة والخمسين، تريح العقيلة الهاشمية رأسها الشريف إلى صدر «مصر»، وتركن إلى التبتل والتضرع والاستغفار أحد عشر شهرًا، حتى يأتي رجب لعام (٦٢) هجرية فتلحق بركب النور النبوي إلى الرفيق الأعلى، أمًّا للشهداء، وشهيدة معركة:

«الدنيا» أو «محمد».

* * *



المفترى عليها
سكينة بنت الحسين

مشهد أول

بنات رسول الله وأزواجهن وأهل بيته سافرات الوجوه، حاسرات الشعر، ممزقات الثياب، يهجم الناهبون على خيامهن، بعد المذبحة، والتمثيل بالأشلاء التي كانت أقمار البيت النبوي، يسرق الناهبون كل شيء، حتى ثوب المرأة من فوق جسدها، والواحدة تصارع الناهب لتبقي على نفسها القليل الذي يسترها. ناهب كربلائي يبكي ويده لا تكف عن الانتزاع والسرقة، وتسأله السيدة زينب: «لماذا تبكي؟» فيقول في قحة وهو مسترسل في نحيبه وسرقته:«إنما أبكي لمصابكم أهل البيت!»، ومن الخارج يأتي صوت سنان بن أنس، الذي اجتز رأس الحسين، يغني فائزًا:

أوقر ركابي فضـــة وذهبـا

إني قتلــت الســيد المحجبـا

قتلت خير الناس أمًّـا وأبـا

وخيرهم، إذ ينسبون، نسبا !.

* سكينة *

مشهد ثان

موكب السبايا الكريمات عرض رسول الله يسقن إلى الكوفة إلى بيت الإمارة الذي كان يسكنه الإمام علي وهو أمير للمؤمنين، وعنوان للحكم الإسلامي كما ينبغي. المسكن الذي شهد زينب عزيزة دارسة للحكمة على يد النموذج الإسلامي الفذ، الذي رباه ونشّأه الرسول المفدّى بخُلق القرآن، ومثل الإسلام:

- «من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فألقها في وجهه».

يجلس مكان الإمام علي بن أبي طالب - الذي لا يخشى في الله لومة لائم - أنجس أهل الأرض طرًّا - عبيد الله بن زياد - مفتونًا جلفًا، وغدًا مغرورًا، لا يرعى في المسلمين إِلًّا ولا ذمّة، نسى الله، فأنساه نفسه، خلقه الله إنسانًا، فجعل نفسه بهيمة لا ترى إلا شهوتها في يد صاحبها، يزيد بن معاوية، فلا تبلغ إلا وجهته.

رأس الحسين بين يدي هذا العبيد الله بن زياد، جمار نار لم يستشعر سعيرها بعد، بل يرتاح للطمها والعبث بها، وكلمات الرسول معلقة بقلوب السبايا:

- «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور».

لكن ها هو ذا الكلب العقور يمثل بابن الرسول!

من وجوه السبايا يبرز - في لقطات قريبة متعاقبة - وجه زينب بنت علي، أخت الحسين، تخطت الخمسين من عمرها، وصوت الحسين الأخير ما يزال في أذنها:

- «يا أختاه ! لا تنسيني في نافلة الليل... يا أخية، لا يذهبن بحلمك الشيطان!».

ثم وجه الرباب بنت امرئ القيس زوجة الحسين، على مشارف الثلاثين، وصوت الحسين في أذنيها:

- «إني أقسم عليك فأبري قسمي، لا تشقي عليّ جيبًا ولا تخمشي عليّ وجهًا».

ثم وجه كالزنبقة المتفتحة تخضله الدموع ويرهقه الفزع، ويمنعه الإِباء عن الانكسار أو الانهيار، هو وجه الصبية الوضيئة سكينة بنت الحسين، في ربيعها الثالث عشر: مثلها لا يراها رجل إلا من محارمها أو زوجها: مثلها يظل وجهًا سرًّا، يحتال عليه الواصفون فلا يعرفونه، حتى يلقى الله نقيًّا مصونًا ! بيد أن البدر الآن قد سرق ستره وها هو ذا أمام الملأ مفضوحًا مباحًا تتجول فيه الأعين الأجنبية براحتها تدقق في التفاصيل، تستوعبها وتحفظها بالذاكرة لحين تأتي لحظات الاستثمار، حين يطرح الذهب فيباع كل شيء، وحين تفتح الأكاذيب سوقها ويأتي موسمها فتشتري أقدامًا لتقف عليها، وتبتاع لتلفيقاتها جدارًا تستند إليه ! فاليوم هو مهرجان الظلم الذي لا بد له من غد مؤثث بالافتراء.

-

فلتعب العيون إذن من وجه سكينة وأخواتها، ولتجر من الرأس إلى القدم تقيس الطول والعرض، والتفاف الخصر، وتتكهن بالاحتمالات التي سوف تنضجها سنوات الشباب الغض، والأنوثة المكتملة: فهي الفرصة التي لن يتيحها الزمن القاسي ثانية، فلتختزن من اللحظة بذور الأقاصيص التي سوف تختلق، والأشعار التي سوف تروى وتنتهك فهناك مذبحة قادمة بعد كربلاء سوف يتم فيها «اغتيال الشخصية» للطاهرة النبوية، بخنجر الزور والبهتان.

ابن زياد ينظر مع الناظرين ثم يحول عينيه إلى التي جلست من قبل إذنه، مشيحة عنه بوجهها ويسأل:

- من هذه ؟

- زينب بنت فاطمة.

فيقول: الحمد لله الذي فضحكم، وقتلكم، وأذهب أحدوثتكم . فترد العقيلة المؤمنة زينب:

- الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه ﷺ وآله، وطهرنا من الرجس تطهيرًا... إنما يفضح الله الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا والحمد لله.

فيقول: كيف رأيت صنع الله في أهل بيتك ؟

فترد: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه فتختصمون عنده.

فيقول: لقد شفى الله نفسي من طاغيتك، والعصاة المردة من أهل بيتك.

فترد: لعمري لقد قتلت كهلي وأبرت أهلي وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفيك هذا فقد اشتفيت !.

تنتقل عينا ابن زياد فجأة لتقع على قمر:

- من هذا؟

- علي بن الحسين.

- أولم يقتل؟

- كان لي أخ يقال له أيضًا عليٌّ، فقتله الناس.

- إن الله قد قتله.

- الله يتوفى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله!.

- اقتلوه!.

وتهب زينب: يا ابن زياد، حسبك منا، أما رويت من دمائنا؟

ويشاء الله أن يتوقف ابن زياد عن القتل، ويأمر بجعل الأغلال في يد وعنق علي بن الحسين: زين العابدين الذي يقول عنه الخليفة عمر بن عبد العزيز بعد سنوات:«سراج الدنيا وجمال الإسلام، زين العابدين».

تلتصق سكينة بعمتها الجليلة والإِباء يضني بكاءها:

أليس هؤلاء الذين، منذ قامت دولتهم يسبون من فوق منابر المساجد، يسبون جدها علي بن أبي طالب، وهم على وعي كامل بحديث رسول الله ﷺ:

- «من سب عليًّا فقد سبني».

لعله من أجل ذلك بالذات يسبون عليًّا، ولو قدروا على أكثر من ذلك لفعلوا، وها هم أولاء اليوم قد قدروا على أكثر ففعلوه، وسوف يقدرون غدًا على أكثر وأكثر، وسوف يفعلونه.

إن كان هؤلاء يملأون أعينهم من وجه سكينة، ويفصحون في قحة مكامن ملاحتها، فلتملأ هي قلبها بالوعي العميق بقدرة الباطل على خداع نفسه، حتى يتطاول كأنه حق! ولتتفحص بعقلها التفافات النفاق حين يتخذ إيمانه ساترًا؛ ليصد عن سبيل الله.

لترى سكينة إذن في هذا المشهد وما يليه برهان ما تعلمته من القرآن عن الكافرين والمشركين والمنافقين ولتعتز بآياته التي تتذكر منها الآن بقوة:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

مشهد ثالث

موكب السبايا الكريمات، وبينهن علي بن الحسين الذي سخر الله له المرض لينجيه من المذبحة، ليحفظ به سلالة العترة الطاهرة من ذرية الرسول، يسير الموكب من الكوفة إلى دمشق، إلى حيث قصر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب.

«إلا تكن نبوّة فخلافة».

هكذا صار منطقهم ليعيدوا «فرسي الرهان» إلى التوازن بين بني عبد مناف وبني أمية!.

قالها أبو سفيان صراحة عند موته:

- «يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة».

وها قد تم له ما أراد!

وما كان أفدح الثمن الذي غرمه المسلمون لتتحقق إرادة أبي سفيان!.

يدخل أهل بيت النبوّة قصر يزيد تثقلهم أغلال الأسر والسبي فلا تتحمل نساء يزيد هول المشهد الفاجع، فيعولن نادبات منتحبات.

لا تسقط أنظار رجال يزيد عن النساء النبويات اللاتي أهتك الأسر سترهن، لا تبالي أنظار رجال يزيد جوَّ الشؤم والبلاء، وتدور تتفحص الحرمات العقائل.

يزيد مشغول بالتنقيب بين الرؤوس المقدمة إليه، حتى يجد رأس الحسين، فيعبث بقضيب في يده بثنايا الإمام الحسين حيث كانت قبلات الرسول المفدّى لقرة عينه.

أحد الرجال يحدق في سكينة التي تعجبه فيتقدم ليأخذها:

- يا أمير المؤمنين، هب لي هذه.

في هلع تختبئ الصبية بحضن عمتها التي تزعق:

- كذبت ولؤمت، ما ذلك لك ولا له.

تأخذ يزيد العزّة بالإثم:

- كذبت... والله إن ذلك لي، ولو شئت أن أفعله لفعلت.

وطأة اللوم تشتد لكن زينب مستمرة:

- كلا والله، ما جعل الله ذلك لك، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا !.

فيهب زاعقًا:

- ... إنما خرج من الدين أبوك وأخوك.

- بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت يا يزيد، أنت وأبوك وجدك.

فيطير صوابه:

- كذبت يا عدوة الله !

- أنت أمير مسلط، تشتم ظالمًا وتقهر بسلطانك... إن الله إن أمهلك فهو قوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

أمنَ العدلِ يا ابن الطلقاء تخديرك بناتك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وآله كالأسارى، قد هتكت ستورهن .. وتحدو بهن الأعادي من بلد إلى بلد... يتشوفهن القريب والبعيد... تنكت ثنايا أبي عبد الله بمخصرتك غير متأثم ولا مستعظم ؟!... أيزيد والله ما فريت إلا في جلدك، ولا حززت إلا في لحمك، وسترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله برغمك... وستعلم أنت ومن بوأك ومكَّنك من رقاب المؤمنين، إذا كان الحكم ربنا والخصم جدنا، وجوارحك شاهدة عليك، أينا شر مكانًا وأضعف جندًا ؟... فلئن اتخذتنا في هذه الحياة مغنمًا، لتجدننا عليك مغرمًا، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك، تستصرخ بابن مرجانة - عبيد الله بن زياد - ويستصرخ بك، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان، وقد وجدت أفضل زاد تزودت به: قتل ذرية محمد صلى الله عليه وآله».

تهدأ سكينة وتقف معتدلة شامخة جوار العمة التي أنطقها الله، «برغم الموت والضراء والحزن»، بكل ألسنة البلغاء الصادقين الأباة، من بيت النبوة؛ لتظل كلماتها مأثورات، تستجمع قلوب المستضعفين في قوة، لمواجهة أعتى الظالمين والمستكبرين.

ويتقدم الفظ بعد هذا كله ليلح على أخذ سكينة.

- يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية.

فيرده يزيد في حنق:

- اغرب، وهب الله لك حتفًا قاضيًا!.

وتعود سكينة مع الركب الحزين عائدين إلى مدينتهم ناصرة الرسول (المدينة المنورة).

* * *

لقطات من الماضي

- امرؤ القيس بن عدي بن أوس: سيد بني كلب يدخل على عمر بن الخطاب يعلن إسلامه - وكان لا يزال على نصرانيته - حوالي (٢٢ هـ) قبل استشهاد عمر عام (٢٣هـ). علي بن أبي طالب يلحق بامرئ القيس فور إسلامه ويطلب منه المصاهرة، فيقسم امرؤ القيس بناته الثلاث: المحياة لعلي، وسلمى للحسن، والرباب للحسين ومعهن: «مرحبًا بكم آل بيت النبي».

- تتأجل الزيجات بسبب أحداث متتالية، تتدخل فيها ظروف الخلافة بعد استشهاد عمر، وانشغال الحسن والحسين في الجهاد ضمن جيش الفتح الإسلامي، وخروجهما في الجيش الزاحف إلى إفريقيا بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام (٢٧ هـ) في عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ويعودان من الغزوة، بعد ما يزيد على العام، حين يتمكن الحسين من الزواج بالرباب بنت امرئ القيس، بعد أن تكون قد بلغت سن الزواج.

- تكون الرباب أحب زوجات الحسين إلى قلبه وتكون الرباب أهنأ الزوجات بزوجها وتلد له عبد الله، وبعده بسنوات تلد آمنة وتناديها: سكينة عام (٤٧ هـ) - (هذا التاريخ يحدده بحث د.بنت الشاطئ في كتابها سكينة بنت الحسين، دار الهلال، ص ٢١).

تترعرع سكينة هانئة بين أبوين متحابين - رغم خضم الأحداث الشرسة المائجة حول بيتها- وبين إخوة أربعة:

١- شقيقها عبد الله، الذي يستشهد مع أبيه في كربلاء.

٢- علي الأكبر، وأمه هي ليلى بنت أبي مرة: بنت أخت معاوية بن أبي سفيان، وقد استشهد مع أبيه في كربلاء بسيوف ابن خاله يزيد.

٣- علي الأصغر، وهو علي زين الدين العابدين، وأمه سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس، وهو الوحيد الذي بقي من أبناء الإمام الحسين يحمل ذرية رسولنا المفدّى صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله، ولد عام (٣٨ هـ)، عرفه الناس في طفولته وصباه وشبابه وكهولته، حتى وفاته وعمره (٥٧) عامًا، عابدًا، زاهدًا، فقيهًا، عالمـًا من أشهر البكائين - ورعًا - في الإسلام.

٤- جعفر وأمه من قبيلة بليّ.

وأخت واحدة هي فاطمة، وأمها أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله التميمي.

- تعيش سكينة السنوات العشر الأولى من عمرها في بيت النبوة، تحت حكم معاوية، يكون فيها عمها الحسن قد آثر الانقطاع للعلم والفقه، ويكون والدها الحسين شارك في فتح إفريقيا وطبرستان، وفي غزو القسطنطينية عام (٤٩هـ)، ويكون متواصلًا مع ذلك في حلقات العلم التي يعقدها في مسجد رسول الله، حتى ليقول معاوية وهو في دمشق لرجل من رجاله: «إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة، فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبي عبد الله الحسين، مؤتزرًا إلى أنصاف ساقيه» ويكون عمها الحسن قد استشهد، مقتولًا بسم دسه له معاوية ليتحلل من عهده، ويجمع البيعة المنكرة لابنه يزيد، عام (٥٠ هـ)، وهي لم تتعد الثالثة، لكنها تستشعر طقس غضب البيت النبوي وإحساسه المكثف بالظلم والغدر، والتزام الحسين بمبدأ: «لا مبايعة ليزيد» انطلاقًا من التزامه بمصلحة الإسلام، دينًا، وحكومة، وحقًّا للمسلمين في عنقه.

- في تلك السنوات العشر، بل الثلاث عشرة، منذ مولدها (٤٧ هـ) حتى سفرها إلى مكة مع الحسين في موسم الحج (١٢/ ٦٠هـ) قبل السير إلى كربلاء، تكون سكينة، ككل نماذج البيت النبوي والمسلمين الصالحين الملتزمين، قد حفظت القرآن ووعته ودرسته، وتشرّبت مبدئيات وأخلاقيات الرساليات الداعيات. من بيت النبوة، وأمامها قدوتها المثلى عمتها زينب بنت فاطمة بنت خديجة، ذرية بعضها من بعض، نشأتهن تربية «محمد» على«الزهد والتقى والجهاد» و«التحرج حتى في الحلال». بعيدات عن اللغو والتفاهة، والهذر وفتنة الدنيا، التي لا تفتأ تغالب كل مجتمع، حتى

--

ولو كان مجتمعًا يحكمه الرسول، فما بال مجتمع أغرقته ثروات الفتوحات، وغزته الميول والأهواء لتسحبه تدريجيًّا من طقس الجدية والالتزام، في عصر الرسول والراشدين، إلى ردة الترف والشعر العائد لمجون الجاهلية وخمرها، ومجالس القيان والخلاعة، وثرثرة الإخباريين ورواياتهم المختلقة، أو الحقيقية، عن نوادر البيوت وفضائحها.

* سكينة *

أينما تلفتت سكينة في تلك المرحلة- الآمنة نسبيًّا في حياتها العاصفة- لم تكن لترى في أبيها وعمتها وإخوتها وأبناء عمومتها وأهلها إلا سياجًا نورانيًّا، يعتصم من فتنة الدنيا بمدارسة القرآن والحديث، والاعتكاف والتهجد والتعبد، والقنوت بالأدعية الخاشعة التي ضمتها حافظة أهل البيت مأثورات عن جدهم الرسول، أو إبداعًا من دعاء قلوبهم الصافية، متوجهًا في تسابيح الله سبحانه وتعالى.

يكمل هذا الجو من البشر الإسلامي المحبة والسكينة، التي كان الحسين يلمسها خاصة عند زوجته «الرباب»، التي نادت طفلتها «آمنة» باسم«سكينة» عنوانًا لبيتها مع الحسين الذي لم يجد حرجًا في تحية أهله بأبيات تقول:

لعمري إنني لأحب دارا　　　تكون بها سكينة والرباب

أحبهما وأبـــذل كـل مالي　　　وليس لعاتب عندي عتاب

وإذا كان الحسين قد ملكه كل هذا الحب لسكينة وأمها، أفلا يعني هذا، وهو إمام المسلمين، أنه رآهما على خير ما يود أن يراه في نموذج الزوجة المسلمة، والابنة المسلمة، وهو الذي «ما رئي إلا عاكفًا على العبادة والجهاد... جهادًا مع النفس، ومع الباطل أينما كان» على حد قول الدكتورة بنت الشاطئ.

ويؤكد هذا القول الحسين للحسن المثني- ابن أخيه الحسن - الذي ذهب إليه خاطبًا واحدة من بناته:

- «اخترت لك ابنتي فاطمة، فهي أكثر ابنتيّ شبهًا بأمي فاطمة بنت رسول الله، وإنها لذات دين وجمال... أما سكينة، فغالب عليها الاستغراق مع الله فلا تصلح لرجل».

* * *

- سكينة في المدينة عام (٦١ هـ) بعد المذبحة بقليل في إطار عمتها زينب العائدة؛ لتواصل حمل راية الحسين راوية وشاهدة، وفاضحة لحكم الفحشاء والمنكر والبغي، حتى يضج منها والي يزيد، ويصدر عليها الحكم بالنفي من المدينة بتهمة «تهييج الخواطر وإشاعة الغضب، والحض على الثورة» فترحل زينب إلى مصر في شعبان (٦١ هـ): بعد ثمانية أشهر من المذبحة.

- تبقى سكينة مع أمها الرباب التي لا تبقى طويلًا بالمدينة، بعد رحيل زينب، إذ يقتلها الحزن والقهر فتلحق بالحسين وابنها عبد الله، بعد عام من استشهادهما في محرم (٦٢ هـ).

- تسافر سكينة إلى عمتها بمصر لتعود بعد شهور إلى المدينة مرة أخرى، تبكي وفاة العمة في رجب (٦٢ هـ).

- سكينة في الخامسة عشرة في كنف أخيها السجّاد علي زين العابدين، وعام (٦٢) هـ علامة في المدينة المنورة، فقد استباحها جنود يزيد ثلاثة أيام، قتلوا ونهبوا واغتصبوا الحرمات، كما شاء لهم شيطانهم، وبعدها ساروا إلى مكة المكرمة، فأحرقوا الكعبة المشرفة بعد ضربها بالمجانيق، ولا يعود الجند إلى دمشق إلا بعد أن تأتيهم الأخبار بموت يزيد فجأة في (٦٣ هـ).

- يموت يزيد ولم يلبث الملك إلا ما يزيد قليلًا على السنوات الثلاث، ذبح فيها ذرية الرسول، وهتك مدينته المنورة، وأحرق بيت الله الحرام: «ثم لم تكن عاقبة هذا كله على آل سفيان، إلا خروج الملك منهم، وانتقاله إلى غيرهم. فقد مات يزيد... قتلته لذته أشنع قتلة، فقد كان - فيما زعم الرواة - يسابق قردًا فسقط عن فرسه سقطة كان فيها الموت».

- مذكور عند طه حسين، إسلاميات، الفتنة الكبرى (٢)، علي وبنوه، دار الآداب، بيروت، ص (١٠٣١).

- تعيش سكينة في هذا الإطار الدامي في كنف أخيها العابد، السجّاد، المتفرغ للعلم والفقه، القائم ليلًا باكيًا داعيًا متضرعًا، وهي «المستغرقة في الله فما تصلح لرجل» ومع ذلك ما نلبث أن نرى الروايات والأخبار والواصفين لسكينة أخرى غريبة عن هذا كله، متناقضة منطقيًّا وفكريًّا ودينيًّا مع عواصف حياتها وإطار منشئها ومبدئية دينها. واصفون لها ما عرفوا لها شكلًا ولا ملمحًا إلا يوم كشف وجهها مع نساء أهل البيت في كربلاء وسقط حجابها، فاستبيح جلال جمالها بالتحدث عنه والتغزل فيه والافتراء عليها.. إيذاء في قالب تمجيد ومباهاة.

الافتراءات

بينما تأخذنا الصفات لنرى خديجة: السكن، وفاطمة: الزهراء والبتول، وزينب: العقيلة الهاشمية، نجد سكينة وقد ألحقوا بها الغادة الهاشمية! أو الحسناء القرشية! أو صاحبة الطرة السكينية! - بزعم أنها كانت لها أساليبها وأفانينها في التأنق في الملبس وتصفيف الشعر !- فتأخذ الصفات صورة «المستغرقة في الله فلا تصلح لرجل» لتحيلها إلى صورة المفتونة بالدنيا المقبلة عليها، المشاركة في تدعيم فتنتها، حتى يتمهد الطريق ليصبح - فيما بعد - معقولًا، أن نرى سكينة وقد شغلت عن قضية الحسين، لتنغمس حتى أذنيها في قضايا عمر بن أبي ربيعة الماجنة، أو نراها وقد انتزعت من إطار أخيها: «سراج الدنيا وجمال الإسلام» علي زين العابدين، لتصبح طرفًا في نوادر «أشعب» الطفيلي الجشع ومقابلات المغنية «عزة الميلاء»، بل وناهية المغني «ابن سريج» عن التوبة والإِياب إلى حظيرة الورع الإسلامي !.

من رواية يقولها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني:

«كان ابن سريج قد أصابته الريح الخبيثة وآلى يمينًا ألا يغني ونسك ولزم المسجد حتى عوفي. ثم خرج وفيه بقية من العلّة، فأتى قبر النبي ﷺ وموضع مصلاه. فلما قدم المدينة نزل على بعض إخوانه من أهل النسك والقراءة، فكان أهل الغناء يأتونه مسلمين عليه، فلا يأذن لهم بالجلوس والمحادثة، فأقام بالمدينة حولًا، حتى لم يعد يحس من علته بشيء، وأراد الشخوص إلى مكة، وبلغ ذلك سكينة بنت الحسين رضي الله عنه، فاغتمت اغتمامًا شديدًا وضاقت به ذرعًا. وكان أشعب يخدمها، وكانت تأنس بمضاحكته ونوادره. فقالت لأشعب: ويلك !..إن ابن سريج شاخص وقد دخل المدينة منذ حول، ولم أسمع من غنائه قليلًا ولا كثيرًا، ويعز ذلك عليّ، فكيف الحيلة في

الاستمتاع منه ولو صوتًا واحدًا ؟ فقال لها أشعب: جعلت فداء، وأني لك بذلك، والرجل اليوم زاهد ولا حيلة فيه ؟ فارفعي طمعك وامسحي بوزك تنفعك حلاوة فمك!.

فأمرت بعض جواريها فوطئن بطنه حتى كادت أمعاؤه أن تخرج».. وتستمر الرواية في هذا النهج من السرد الفظ البذيء تحكي فيه كيف أرغمت بنت الحسين «أشعب» على الذهاب لابن سريج المغني التائب ليقنعه بالغناء عندها. والمغني يقول: «كلا والله، لا يكون ذلك أبدًا بعد أن تركته»، حتى يصل بالأمر إلى أن يهدده أشعب بالصراخ والافتراء عليه بأبشع التهم الأخلاقية، حتى يرضخ المغني، ويذهب إلى سكينة التي تضحك من فعل أشعب اللاأخلاقي، وتأمر له بدنانير وكسوة -!!!- ثم تقسم على المغني قائلة:«برئت من جدي إن برحت داري ثلاثًا، وبرئت من جدي، إن أنت لم تغن إن خرجت من داري شهرًا، وبرئت من جدي إن أقمت في داري شهرًا إن لم أضربك في كل يوم فيه عشرًا، وبرئت من جدي إن حنثت في يميني أو شفعت فيك أحدًا!» حتى صاح المغني التائب مستسلمًا: «واذهاب ديناه!...وافضيحتاه !...» ثم اندفع يغني.

وتستمر الرواية في حديث الإفك هذا - الذي يحمل وزره العظيم صاحب الأغاني ومن استأجره ومن صدقه - تحكي عن سوار الذهب، الذي أرغمت سكينة الرجل على لبسه، وكيف أرسلت بعد ذلك إلى المغنية «عزة الميلاء» لتأتي وتغني مع ابن سريج، الذي منع عن التوبة، ليكتمل مجلس الغناء في بيت حفيدة رسولنا المفدّى !

- نص الرواية مذكور بكامله عند د. بنت الشاطئ، سكينة بنت الحسين، دار الهلال، ص١٤٣- ١٤٦.

* سكينة *

كان المقصود، بمثل هذه الروايات - وهناك ما هو أفحش وأبشع منها- وبمثل إقحام اسم سكينة - زورًا - إلى أبيات الغزل لعمر بن ربيعة أن ترفع الرهبة وتسقط الحرمة، وتستباح سيرة العقيلة النبوية، مثلما استبيحت المدينة وأحرقت الكعبة، من قوم لا يتأثمون ولا يستعظمون من الاجتراء على حدود الله، حتى يتم تجريد جمهور المسلمين من عزّة مقدساته، وحتى تتحطم قياداته وتتهاوى قدواته. فالطعنة بهذا البهتان لم تكن تعني «سكينة بنت الحسين» وحدها، بل كانت في صميمها مذبحة أخرى- ككربلاء - معنوية وأدبية، تغتال فيها «شخصية أهل البيت» لتنتزع، بالافتراء، قيادتها الروحية، كما انتزعت من قبل، بالغدر والذبح، قيادتها الحكومية - ولا أقول

السياسة: إذ إن هذه القيادة السياسية والروحية لأهل البيت لم تسقط عنهم أبدًا، في أي يوم من الأيام، على مدى الزمن الإسلامي، على الرغم من الجهد الهائل للباطل وأعوانه في كل زمان ومكان.

❊ ❊ ❊

المشهد الختامي

كانت سكينة منذ حداثتها: صاحبة مصحف وذكر وثقافة نبوية، تعكسها في ذكاء وإبداع، ورثت عن أبيها وجدها البلاغة، وعن عمتها الطلاقة والمبادرة برد الإساءة في شجاعة ورقي، وعن أمها قول الشعر الذي تمحور حول رثاء الحسين:

إن الحسين غداة الطف يرشقه   ريب المنون فما أن يخطئ الحــدقة

بكف شر عباد الله كلــهم   نسل البغايا وجيش المرّق الفسقة

ظلت سبع سنوات، بعد كربلاء، رافضة للزواج، والمعروف شعبيًّا أنها كانت مخطوبة للقاسم ابن عمها الحسن، الذي استشهد في السابع من محرم عام (٦١ هـ)، وكان من أوائل شهداء كربلاء ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة.

ثم زوّجها أخوها الإمام علي زين العابدين مصعب بن الزبير أخا عبد الله بن الزبير، المنافس لبني أمية - بعد الحسين - ، وكان مصعب قد تولى إمارة البصرة والعراق من قبل أخيه، وعندما تزوجته سكينة عام (٦٧ هـ)، وهي في العشرين من عمرها، عادت معه إلى العراق مسترجعة سبع سنوات مضت على وقفتها العزلاء في أسر عبيد الله بن زياد.

كانت إقامة مصعب بالعراق إقامة قلقة مضطربة، خاض فيها حربًا ضد «المختار» بالكوفة، بعد أن جاوز الحد في بغيه على أهلها، مستترًا تحت شعار: «الثأر للحسين!» وقتل مصعب المختار، دفاعًا عن أهل الكوفة، وبقيت أمامه المواجهة التي حفزه إليها تربص عبد الملك بن مروان به.

وحين جاءت لحظة خروجه للحرب ثقل على سكينة وداعه وألـمّ بها دوار فأمسك بها مصعب يشجعها:

- ما ترك أبوك يا سكينة لابنة حرّة عذرًا..

فقالت:

- واحزناه عليك يا مصعب !

وكانت المرة الأولى التي تصرح فيها بحبها لزوجها.

فالتفت إليها:

- أكان كل هذا لي عندك ؟

فقالت:

- وما أخفى أكثر.

فقال وقد أزفت لحظة الرحيل:

- لو كنت أعلم، لكان لي ولك يا سكينة شأن آخر !

ومشى يردد:

وإن الألي بالطفّ من آل هاشم

تآسوا فسنوا للكرام التآسيا

(مذكور باختلاف عند د. بنت الشاطئ، سكينة بنت الحسين، دار الهلال، ص٨٦).

وقتل مصعب بغدر من الكوفيين عام (٧٠)هـ. وجاء المعزون إلى قصر الإمارة بالكوفة لتواجههم سكينة من جديد. وما أشبه الليلة البارحة (٦١) هـ: لكنها الآن في الثالثة والعشرين تنهض، ظلًّا وامتدادًا لزينب، لتواجه أهل الكوفة، ناظرة إليهم في تعب وملل، وهي تقول في حزن هادئ جليل:

«الله يعلم أني أبغضكم،

قتلتم جدي عليًّا، وقتلتم أبي الحسين، وزوجي مصعبًا،

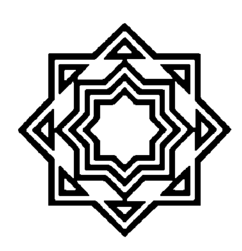
بأي وجه تلقونني ؟

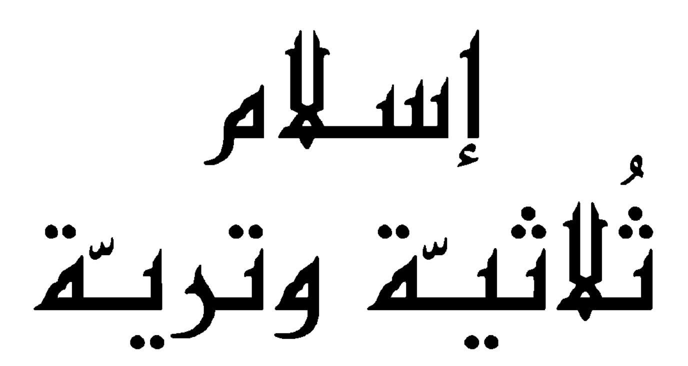
أيتمتموني صغيرة، وأرملتموني كبيرة».

وأشاحت بوجهها. وخرجت من الكوفة، ومن العراق.

وظلت بالمدينة مجلس علم وفقه، وثقافة نبوية حتى توفاها الله عام (١١٧هـ) وهي في السبعين من عمرها.

* * *




إسلام
ثُلاثيّة وتريّة

الوترية الأولى
وله أسلم من في السماوات والأرض

لا أَدْري لماذَا يَخفِقُ قَلْبي وَجلًا ؟

يأْتي رَمَضَانُ ليأْخُذَ المؤمنينَ إلى الاعْتِكافِ للعِبَادةِ،

والمفتونون يَأْخُذُهُمُ الصَّخَبُ إلى:

لَغْوِ الحَدِيث

ولَيَالي الحمْقى!

زَمَنٌ في الزَّمَنِ رَمَضَانُ

فَسِيحٌ

مُـمْتَدٌّ في طُولَ النَّهَار وعُمْقِ اللَّيلِ

وفي الاتِّسَاعِ،أَجِدُني كَمَنْ سَاقتْهُ قَدَمَاهُ إلى اخْضرِارٍ مـُمْتَدٍّ في مِساحةٍ أَنَا عَليهَا:

نقطَةٌ.

نَصُومُ قَبْلهُ وَبَعْدَه لَكِنَّه يَظِلُّ

رَمضَان،

مَذَاقًا مُتَفَرِّدًا

دُخُولًا جَمَاعِيًّا إلى كُتلةٍ فِي الوَقْتِ تَتمَيَّزُ عَنْ سَائِرِ الأيَّامِ لأنَّها:

إنْجَازُ فَريضةٍ هي أَحدُ أرْكَانِ الإسْلام الخَمْسَةِ.

لَيْس مِن الأشْهُر الحرُم، لكنَّه: لَيْلَةُ القَدْرِ:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾.

وهو نصر بدر:

﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ ...... ١٢٣﴾ [آل عمران: ١٢٣].

* وتريات *

أُحَلِّقُ في السَّقفِ مُخْتَرِقَةً حَيِّزَهُ الحجَريَّ إلى أبعادٍ في السَّماء وآمَادٍ في الأرْضِ

أُمارسُ: عِبَادَة التَّأمُّلِ.

أسْتَشْعِرُ الْكَلِمَةَ: «مُسلمَةٌ»

كَلِمَةٌ ؟

صِفَةٌ؟

هُوِيَّةٌ؟

مُسْلِمَةٌ!

مِلَّة أَبينَا إبْراهيم:

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

* إسلام *

عَلَى نَسَقِ نَفْسِهِ: سمَّانا

تَلفّتَ فِي الْكوْنِ فَرَأَى الآيَةَ في الآفَاقِ:

﴿..وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ..﴾.

كُلُّ شَـيْءٍ خَاضِعٌ مُسْتَسْلِمٌ، وَكَلِمَتُهُ «كُن» مَعَهَا: «كُنْتُ».

ويكُونُ الخُضوعُ «لَهُ» وعْيًا بألا خضوعَ إلا «له» ويَكُونُ إسْلَامُ الوجهِ إليه: قوةً لهذا الوجه.

* إسلام *

يَرْتَفِع الوَجْهُ بإِسْلَامِه لله مُجابِهًا العُتُوَّ والبَغْيَ والطُّغْيَانَ.

«حَنِيفًا مُسْلِمًا»،

على نَسق نفسه سمَّانا،

وعلى الناسِ نَحْنُ الشُّهَدَاء!

* وتريات *

لحظةُ الإِفْطار «زمزم»

تُسْقينَ يا هاجرُ وتَسْتقين،

ونَسْتقي.

وجْهُ هَاجَر لا يفارقُني:

نَحِيلا

أسمرَ

وسيما

صابرًا:

صائمًا.

* إسلام *

يأْخُذُك النبي «زوجةً»:

شجرةً،

بوادٍ غيرِ ذِي زرْع

يَغرسُك وَيتْركُكِ.

تقفين بنُحُولك:مصرية تَتَساءلين:

«إبراهيمُ أين تَذهَبُ وتتركُنا...؟

آلله أَمَرَكَ بهذا ؟

إذن لَا يُضَيِّعُنا!»

* إسلام *

القيظُ، الظمأ..وسبعةُ أشواطٍ بين مرتَفَعَين في الـهَجِير، ومَمْلَكَةُ البَيْداء أطرافُها السرابُ، وإسماعيلُ بلا صُراخٍ على إصبع بين الموتِ والمُـعْجِزَةِ.

مع اليقينِ، مع الإسلامِ لا زِلْت، هاجَرُ، تُسَبِّحين:

«إذن لا يُضيِّعُنَا!».

* وتريات *

أَمِنَ الـهِجْرة اشتقَّت اسمها أم أخذنا الهجرةَ من هَاجَرَ؟

اجتمعت الـهِجْرةُ وهَاجَرُ وصَاحَبَهُما: الهجِير !

لم يكن فرعونُ قط مصرَ !

هي الأرضُ مصرُ:

﴿....لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤].

أتكون مِصرُ وجهَ هاجَر،

أم:

وَجْهَ فِرْعَونَ؟

أنحتَار؟

ومِنْ بَيْتها في الجنّة يطل وجه آسيا يُغْنِينا عن الاختيار:

﴿....وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ....﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

* إسلام *

مُسلمةٌ مِن مصرَ: هَاجَرُ أمُّ إسماعيلَ.

مسلمةٌ من مصرَ: آسيا حاضنةُ موسى.

مسلمةٌ لاجئةٌ إلى مصرَ: مريم بولدها عيسى.

﴿...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا...﴾ [المائدة: ٥].

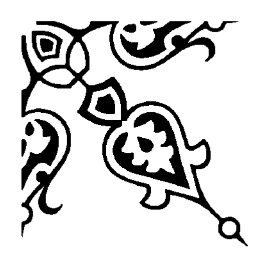
* إسلام *

فَعَبْرَ الزَّمان ثمَّ الاقْتِران:

إسلامٌ ومصرُ:

﴿...وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ....﴿٧٣﴾﴾ [يونس:٧٣].

* * *



الوترية الثانية
هذا ما وعدنا الله ورسوله
وصدق الله ورسوله

أَيْنَعت شجرةُ هاجَر، بين البيت وزَمزم.

فتَمَهَّلي بالسَّير يا إبلَ الطَّريق، وترَيَّثي عند الشَّفقِ.

صَدَقَ «الكلام» وَمَا انمحى مُنْذُ الأَزَلِ:

﴿... رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ....﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩].

حدَاء، غِناء، ونَقْر دُفٍّ مِن بَعيد:

أَسْعَدُ الأيامِ !

أَجْمَلُ الزَّمَنِ !

أَكَثِيرٌ على القلبِ الفرحُ،

والقرن السابعُ يَأتي بمحمد ؟

* إسلام *

مُصَابَرَةٌ وَرِباطٌ

حصارٌ في شِعْب أبي طالب،

وجوعٌ

هزيمةٌ في أحد

طيورٌ جارحةٌ تَتَحلّق.

أحزابٌ تتحالفُ على بُغضِ «محمد»

- بأبي أنت وأمي وفداؤك رُوحي يا «محمد»-

و«محمد» يَرقب صَحْبه:

﴿... هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ... ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

النَّصْرُ غيرُ بَطيء،

لكنه

الإسلام يُمْتَحَنُ:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

* وتريات *

بَتُولٌ في قَلْعَةِ الـجُحُود

«مريمُ» هِي

صائمةٌ تحمِل النُّبُوَّةَ،

والحقُّ يَنطق عنها:

﴿...إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ...﴾!

*** إسلام ***

أُنوف، أَقواسٌ، فوقَ الرأسِ الشريف

-أي قبح وأي سَوَاد-

حَوِّمي يا طُيُورَ الزَّمان الجارحَة

وبالصَّليل قَرْقِعِي وبالصَّريخِ،

وانهشي بالظلمِ وجهَ الحق،

وازْدَردي الطَّعام.

عذْراءُ والدةٌ - بدر البدورِ الطاهرة-

﴿...مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ مِن ... ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

*** إسلام ***

بدْرُ البُدُورِ وجهها،

رَغم الشُّحوبِ،

مضيء:

﴿..إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

*** وتريات ***

أجنحةٌ تتواصل.

ظلماتٌ متراكمة.

طيورُ حدأَةٍ تَتلبد:

سماءٌ مطبقةٌ:

﴿..وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦].

صائمةٌ تشيرُ إليه:

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٣٤].

وسَاحَةُ الصَّبرِ مَلْعبُ الطِّفْلِ المسيحِ

* إسلام *

البشَارَةُ.

الألَقُ.

الـمَسَــرَّةُ

جِيادُ السَّبْق نحو الله

تهلَّلي يا مرْيمُ:

فأيُّ فَوْزٍ؟

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ .... ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠].

ومريم هي:

بدر، رغم الشحوب،

مضيء.

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى.... ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: ٤٣].

* وتريات *

شهيقًا: إسلامٌ.

زفيرًا: إسلامٌ.

هكذا حالُ المسلمِ.

تهدأ العينُ وتقَر إسلامًا يقود صاحبه إلى:

وادِي الـجَمْر:

جِهادُ نَفْسٍ تَتَحضرُ «بالإِسلام».

تتجَولُ في «الإِسلام».

تَغْتَسِلُ من الأنانيةِ والجشع والهوى.

تستعبد الشهوة وتُحَجِّمُها:

تحت إمرة «الإرادة»!

*** إسلام ***

شَمْسٌ.

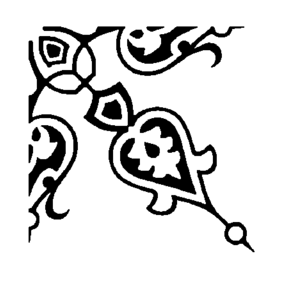
وهجٌ.

وخوضٌ لعُبابِ النَّهار،

سطوعًا نحوَ مغربِ الشمس:

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا ٢٦﴾ [مريم: ٢٦].

* * *



الوترية الثالثة
أما الصوم فإنه لي

يسطعُ فينا رمضانُ.

ضَفِيرةُ بلّور تَـمْتد:

حبائلَ رحمةٍ ترفعنا من حرِّ الضيق.

لا يعرفُ رمضانَ إلا الصائمُ.

نَخْرجُ من جَوْف الوحشةِ،

بدعاءِ حبيسِ الحوتِ،

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء ٨٧].

أسمعُ هَسْهَسةً من ريح الجنة.

نسماتِ الحقِ السامقِ،

مَعَ عَبَقِ الـمِسْك يَأْتي الشُّهَداءُ،

يتنادَوْنَ بوُجُوهٍ كَفَلَقِ الإصباح

يأتونني:

هل أنتِ حزينة ؟

أضحك.

هل أنت حزينة؟

ضَحِكي يَزْدادُ فأضحك:

نَعم. نَعم.نَعم.نَعم!

* إسلام *

يَبتسمون.

يَربتُون على كتفي:

ذَاهِبين مع الضَّوء كما جاؤوا.

يأْتون من قلبي كلما اسْتَشْعَروا لِيَ القـنُوطَ.

يصـْعَدون إلى حيث أَرَاهم:

شموسًا بنداءِ الفجر:

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠ ﴾ [الروم: ٦٠].

* وتريات *

يهبطُ صَدْري ويرتاحُ الزفير.

يحمِّمُني نهرُ الحزنِ الأخضر:

يقتلعُ أعشابَ القنوطِ السوداء.

أغتسلُ كالمرّاتِ من قيدِ اليأسِ الملتف.

منتعشًا يطفو قلبي جذلا:

أما رأيتُكم تـخْرجُون كأسرابِ البجعِ المسحورة،

تنتفضون أناسًا ؟

* إسلام *

يقينًا كنتُ أراكم،

بأَعنَاق الحقِّ الناصعة،

وكنتُ منحنيةً إلى نفسي

وهي تتفطرُ إليه:

«... إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا..»

«... إنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا..»

* وتريات *

الصـّبَاحُ وَلا أنهض.

أعودُ إلى الحُلْم

- كُنتُ في قَبوٍ أخذتني إليه امرأةٌ بيضاءُ. في القبوِ غيري والمرأةُ شريـرة تكره الشمسَ والضوءَ والماءَ. تَغْتسلُ بالزيتِ: تستحم به وتأكلهُ فأستنكر:

كيف أتوضأ بالزيت ؟

* إسلام *

الشمسُ والماءُ محظوران:

كيف التوضؤ ؟

لو يتهربُ بعضُ ماءٍ إلى القبو!

أعودُ إلى الحـُلْم.

أقذف المرأةَ بالماءِ فتحترق:

﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ... ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

* وتريات *

أهربُ وأصعدُ إلى وجِه الشارع.

أصحو.

أَنهضُ.

أَفْتحُ النافذةَ.

تغرق الغرفة بالشمس:

«الحمد لله»

أسْتَنْشِقُها حتَّى تَشْبَعَ رئتاي بالحمدِ.

-أُدَوِّن مَلْحُوظةً فوريَّةً:

قاعُ البئر،

جوفُ الحوتِ،

غياهبُ السجن

أقبية كلها

حصار للحق وغيابٌ للشمسِ وَقَيْظٌ من دُون زمزم،

ولولا رحمةُ ربي لظلَّ يُوسفُ في بئرِ الظُّلمِ،

ويونس في بطنِ الحوتِ،

ولبقيتُ هناك: ما نسيتُ السجنَ لحظة من نهار !

تسطعُ فينا الشمسُ.

يسطعُ فينا الحــقُّ

يسطعُ فينا الحبُّ

يسطعُ فينا رمضان

ضفيرةَ بلَّور!

وكيفَ يُمكنُ أنْ يسطعَ فينا،

ولا يكونُ الميلادُ: سطوعًا مشابهًا؟.

* * *